# شخصية مروان بن أبي حفصة بين العاطفة والشعر

د. إسماعيل محمود محمد
جامعة جنوب الوادي

# شخصية مروان بن أبي حفصة بين العاطفة والشعر

**د. إسماعيل محمود محمد**
جامعة جنوب الوادي

## ملخص البحث:

تتناول هذه الدراسة" شخصية مروان بن أبي حفصة بين العاطفة والشعر"، و تحاول معالجة هذه القضية من خلال الجمع بين العاطفة الخاصة للشاعر وبين موضوعاته التي تصدى لها، ومن الطبيعي في هذه الحال أن تبرز الشخصية وتتضح معالمها ويكون من السهل استخلاص حقيقتها، ولأن العاطفة ركن أصيل في عملية الإبداع تسهم في تعرية الشاعر وتسهم بشكل كبير في تقديم جوانب شخصيته. وكان الدافع وراء هذه الدراسة متمثلا في جدلية التعرف على شخصية مروان ابن أبي حفصة من خلال أشعاره، وما إذا كانت هذه الأشعار تحمل إشارات واضحة تعين على فهم هذه الشخصية؟ ويمكن للدارس أن يحدد قضية هذه الدراسة ويصوغ مشكلتها المحورية في هذه التساؤلات التي تمثل بؤرتها الأساسية: هل كان للعاطفة أثر في أشعار مروان بن أبي حفصة؟ وما الدور الحقيقي لهذه العاطفة؟ وهل التعرف عليها يعين في الوصول إلى الشخصية؟ ثم في نهاية المطاف ما مدى تأثر الموضوعات الشعرية بها ؟وهل كان الشعر صدى لها؟.ويعد موضوع هذه الدراسة لونًا من الدرس القديم الجديد لأنه يخضع شخصية قديمةً وشعرًا قديمًا لمقاييس النقد الحديث، ويحاول عن طريق هذا المزج أن يقدم رؤية واضحة تروي الظمأ وتسد الحاجة عن هذه الشخصية التي لم تحظ بالدرس المتعمق أو الدرس الذي يروي ظمأ المتلقي، ولم تحظ حتى بالدرس الذي يفي بالحاجات الأولية عن هذا الشاعر، وذلك لأن جُلَّ ما كتب عنه يدخل في دائرة ما يسمى ب " تاريخ الأدب " وهي دراسات– كما هو معروف– ذات منحىً شموليٍّ، فضلا عن كونها دراسات نمطية في كثير من جوانبها، لأنها تعتمد على حشد وسرد وتقديم وتكرار الأحكام العامة وتبتعد عن تقديم الآراء المتعمقة الدقيقة [في أغلب الأحيان]. وفي الأخير، نستطيع القول عن شخصية مروان: إنها شخصية مفتونة بالمال ولديها القدرة على تقمص الأدوار التي تروي عن طريقها شهوتها العارمة نحو المال، وهذه الشخصية ماثلة في كل أغراضه الشعرية، فهي تواجهك في المديح والرثاء والفخر والهجاء...وغيرها من أغراضه الشعرية .

**مقدمة:**

الحمد لله رب العالمين، خلق الإنسان في أحسن تقويم وأمره بالتدبر والتفكر، فكان أول ما أنزله من القرآن الكريم قوله:﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾ ، والصلاة والسلام على رسول الرحمة والهداية، نبينا محمد الخاتم الأمين وسلّم تسليمًا كثيرًا. أما بعد:

فهذه الدراسة تتناول " شخصية مروان بن أبي حفصة بين العاطفة والشعر"، وهي تحاول معالجة هذه القضية من خلال الجمع بين العاطفة الخاصة بالشاعر وبين موضوعاته الشعرية التي يتصدى لها، ومن الطبيعي أن تبرز الشخصية وتتضح معالمها ويكون من السهل استخلاص حقيقتها من خلال الجمع بين العاطفة والشعر، وذلك لأن العاطفة ركن أصيل في عملية الإبداع تسهم في تعرية الشاعر كما تسهم بشكل كبير في تقديم جوانب شخصيته.

ويكمن الدافع وراء هذه الدراسة في محاولة التعرف على شخصية مروان بن أبي حفصة من خلال أشعاره، وهل تحمل هذه الأشعار إشارات واضحة تعين على فهم هذه الشخصية؟. ويمكن للدارس أن يحدد قضية هذه الدراسة ويصوغ مشكلتها المحورية في هذه التساؤلات: هل كان للعاطفة أثر في أشعار مروان بن أبي حفصة؟ وما الفائدة التي تحملها هذه العاطفة؟ وهل التعرف على هذه العاطفة يعين في فهم الشخصية؟ وما مدى تأثر الموضوعات الشعرية بهذه العاطفة؟وهل كان الشعر صدى لهذه العاطفة؟.

ولمَّا كانت الأشعار التي ترتبط بهذه الإشكالية والتي تتصل بالعاطفة موجودة وواضحة في ديوان مروان بن أبي حفصة، فإن هذا يخدم هذه الدراسة ويقدم لها مادتها التي تقوم عليها من جانب، ويقدم القناعة التي تحتم ضرورة ولوج هذا المعترك لكي نقف على الصورة المقاربة لهذه الشخصية من الجانب الثاني. والأهم من ذلك أن هذه الدراسة تحاول طرح آراء جديدة بعيدة عن المألوف والمقرر عن هذا الشاعر، طالما أن الآراء المكررة والمعادة هي الوحيدة المتاحة والمفروضة على من يتصدى لدراسة مروان وشعره. ولا يخفى أن هذه الدراسة تحاول طرح الأقنعة الغليظة والأحكام الخاطئة التي

طبعت على مروان وشعره؛ كما أنها تحاول إزاحة الضباب الكثيف الذي طبع عليه كذلك. وفوق كل هذا تحاول إعادة اكتشاف زوايا جديدة متصلة بمروان وشعره؛ وهو ما يعدُّ أمرًا مطلوبا وصحيًا وذلك لكي تتحرك الأمواج الراكدة التي تحيط به وحتى نتعرف عليه من قرب. ولا يخفى أن الثبات على ما قدمه السابقون والاكتفاء به يعدُّ ضربًا من التحجر الممقوت في الدراسات الأدبية؛ خاصة وأن هذه الدراسات تحتاج إلى إعادة النظر والمراجعة حينا بعد آخر. لأن الحسم والقطع لا ينبغي أن يكون واردًا في هذه الدراسات.

ويعد موضوع هذه الدراسة لونًا من الدرس القديم الجديد لأنه يخضع شخصية قديمةً وشعرًا قديمًا لمقاييس النقد الحديث. ويحاول عن طريق هذا المزج أن يقدم رؤية واضحة تروي الظمأ وتسد الحاجة عن هذه الشخصية التي لم تحظ بالدرس المتعمق الذي يروي الظمأ عند المتلقي؛ أو يفي بالحاجات الأولية للقراء، وذلك لأن جل ما كتب عنه يدخل في دائرة ما يسمى ب"تاريخ الأدب". وهي دراسات – كما هو معروف – ذات منحىً شموليٍّ؛ فضلا عن كونها دراسات نمطية عقيمة في بعض جوانبها. لأنها تعتمد على حشد وسرد وتقديم وتكرار الأحكام العامة وتبتعد عن تقديم الآراء المتعمقة الدقيقة [في أغلب الأحيان].

ما أحوج مروان وغيره من شعرائنا إلى دراسات تخضعهم مع إبداعهم لمقاييس النقد الحديث. ولكن بشرط أن تتلاءم هذه الدارسات مع خصوصيتنا التي تميز أدبنا وأن تراعي هذه المقاييس النقدية الحديثة تقديم أحكام منسجمة مع واقعنا العربي الأصيل. بحيث تكون مراعية للذوق العربي وأن تطبق الأحكام المتناسبة مع واقعنا الأدبي لا تلك الأحكام الخارجة من واقع الغير. ولا مانع أبدا من الاستئناس بما لدى الغير في تقديم أحكام تخدم هذه الخصوصية وتعمقها وتعمل على إثرائها؛ ولكن دون أن تتلاشى / تذوب / تنمحي الشخصية العربية للمبدع والإبداع على حدٍّ سواء.

ولا يبقى في هذا الصدد إلا بيان شخصية مروان بن أبي حفصة من خلال محاولة تفسير العاطفة عنده وبيان قيمتها وعلاقتها بموضوعاته الشعرية، والوصول إلى هذه الغايات يقتضي معالجة المباحث الآتية:

أ– المقدمة: وبينت فيها أسباب اختيار الموضوع والدوافع إليه وقيمته وأهميته.

ب- التمهيد: ووقفت فيه على أهمية العاطفة ومكانتها في الشعر بخاصة والفنون بعامة، وختمته بذكر مفهوم العاطفة الذي سرت عليه في الدراسة.

ج - شخصية مروان بين العاطفة والمديح.

د - شخصية مروان في العهد الأموي بين العاطفة والشعر.

هـ- شخصية مروان في مدح معن بن زائدة بين العاطفة والشعر.

و - شخصية مروان في مدح الخليفة المهدي بين العاطفة والشعر.

ز- شخصية مروان في مدائحه الأخرى بين العاطفة والشعر.

ح- ضروب التجديد التي سلكها مروان في مديحه.

ط - شخصية مروان بين العاطفة والرثاء.

ي- شخصية مروان بين العاطفة والموضوعات الشعرية الأخرى.

ويمثل كل مبحث من هذه المباحث قضية متكاملة وحلقة قائمة بذاتها، بالإضافة إلى أن كل مبحث من مبحثها يتحد ويتلاقى مع غيره من مباحث لتقديم الشكل النهائي والأخير لهذه الدراسة؛ كل هذا من أجل تقديم شخصية منطقية ودقيقة لشخصية مروان بن أبي حفصة، بحيث تكون هذه الشَّخصيةُ التي تقدمها الدراسة أصحَّ وأقربَ إلى الشاعر.

وتقتضي الإشارة في هذا السياق إلى أن تقسيم هذه المباحث على هذا النحو ليس نابعًا من تساوي هذه المباحث كل منها بالآخر، ولكن يعد هذا التقسيم في هذه الدراسة عملا تنظيميًا وأمرًا منهجيًا لا أكثر ولا أقل، فلا يمكن أن يتساوى المديح مع الرثاء أو مع أي موضوع آخر من الموضوعات التي عالجها مروان، وذلك لطغيان موضوع المديح عنده وغلبته على الأغراض الشعرية الأخرى، حيث يطغى المديح ويسيطر على نتاجه الشعري كله، ذلك النتاج الذي تشكل فيه الموضوعات الشعرية الأخرى أجزاء فردية وقليلة، فالظاهرة الأولى والأخيرة عند الشاعر تتمثل في أشعار المديح التي قدمها. وعلى هذا لا يمكن أن يتساوى المديح مع بقية موضوعاته الشعرية في الطرح والمعالجة، ولو صح هذا الأمر مع غيره من الشعراء فإنه لا يصح ولا يستقيم مع مروان، وذلك لأن كل أشعاره التي وردت في ديوانه والتي يصلح أن تقدم حكمًا مقبولاً عنه قد اقتصرت على المديح في المقام الأول.

وبعد: فإنني قد بذلت في هذا الدراسة قصارى جهدي، فإن وفقت إلى الصواب فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وحسبي أني كنت حريصًا على الوصول إلى الصواب وعاملا إليه قدر استطاعتي، والله من وراء القصد وهو الهادي إلى الصراط المستقيم، وأسأله – سبحانه – أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد الهادي الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

**تمهيد:**

تعدُّ العاطفة ركنًا أساسيًا في عملية الإبداع الشعري ليس هذا فحسب؛ بل إن العاطفة ركن ضروري في كل الفنون الإنسانية. والقاعدة تقول: إنه لا يوجد فن بدون عاطفة، والافتقار إلى العاطفة يعني البعد عن التأثير، ولا نبالغ إذا ما قلنا: إن فنًا يفتقر إلى العاطفة لا يعد فنًا في الأساس؛ فهو فن أبتر ناقص، كما أن شعرًا لا يحمل عاطفة لا يمكن أن يكون شعرًا بأي حال من الأحوال.

وعلى أية حال، تعدُّ دراسة العاطفة وإفرادها بالبحث عملا خالصًا من أعمال النقد في العصر الحديث عندما كثرت المباحث في علم النفس الأدبي أو علم الأدب النفسي، كما أن هذا المصطلح من معطيات مناهج النقد الحديث أيضًا، فضلا عن أن هذا اللون من البحث لم يفرد بهذه الطريقة المستقلة في النقد العربي القديم.

وتكوّن العاطفة مع الخيال واللغة[المعاني] والصور العناصر الأساسية التي تقوم عليها عملية الإبداع الشعري؛ وتحتل العاطفة الضلع الأول والأهم من بين "العناصر الأربعة"[1]التي يتكون منها وينبني عليها الشعر. وقد أفاض الدارسون في علم النفس ومناهج النقد الحديث في تعريف العاطفة وبيان أقسامها وتقسيماتها وتعمقوا في تفصيل حدودها وتفريعاتها وتطرقوا إلى تناول أثرها في الأدب وبينوا مكانتها وأهميتها وقيمتها في العمل الشعري. فما قيمة العاطفة في الفن بعامة والشعر بخاصة؟ إن وجود العاطفة قاسم مشترك في الفن والشعر (كأحد الأجناس الفنية) على حدٍّ سواء. فلا وجود للفن بدون عاطفة أو انفعال يبعث فيه الوجود وبالمثل لا يوجد شعر بدون عاطفة تبعث فيه الحياة؛ وزيادة على هذا فإن وجود العاطفة في الشعر شيء من أهم خصوصيات العمل الشعري، فإذا كان وجود العاطفة أمرًا ضروريًا في الفنون بعامة، فإن وجودها في الشعر يعدُّ متطلبًا أكثرَ إلحالحًا. وهو ما يراه المازني ويردده في قوله:"وبعد فإن الشعر مجاله العواطف لا العقل والإحساس لا الفكر"[2]. وقوله:" وكذلك لا بد في

---

(١) هذه التسمية خاصة بأحد نقادنا في العصر الحديث الذين مارسوا العمل النقدي تنظيرًا وتدريسًا وتطبيقًا وهو د. أحمد كمال زكي.

– "النقد الأدبي الحديث، أصوله واتجاهاته"، دار النهضة العربية: القاهرة، ط٢، ١٩٨١م، ص٨٤.

(٢)إبراهيم عبد القادر المازني:" الشعر غاياته ووسائطه"، جمع وتصحيح د. مدحت الجيار،دار الصحوة:القاهرة، ط٢، ١٩٨٦م، ص٧٢.

الشعر من عاطفة يفضي بها إليك الشاعر ويستريح"[1]. ويقرر المازني كذلك أن الشعر إذا كان فكرا خالصًا فإنه لا يعد في حقيقته شعرًا وإنما يتحول إلى علم خالص، وبالأحرى يكون علمًا خالصا ولا يصح أن نطلق لفظ الشعر عليه[2]. والعاطفة في الشعر بمنزلة القلب الذي ينبض بالحياة وهي العصب الذي يتفجر بالنشاط وهي العين التي تميز الأشياء عند الإنسان، فهي التي تقدم للشعر الديمومة والاستمرار والتأثير[3]. وفوق هذا يذهب بعضهم إلى القول:" فالعاطفة إذن هي لبُّ الفنون وعمادها وهي المعزف الذي تصدح به أوتار الأدب وعليه يعزف الأديب، وهي الشرفة التي يطل منها علي ما تنطوي عليه النفوس من ألم وأمل والمنفذ الذي يصل منه إلى القلوب"[4]. كما أنه يصيب كبد الحقيقة بقوله أيضًا:" إن ارتباط العاطفة بالأدب وثيق، فإن الأدب هو التعبير الجيد عن خير ما في الحياة من روائع المعاني والخواطر النفسية. وإن الميدان الذي يسرح فيه الأدب ويجول الأديب، هو الميدان الحيوي والميدان النفسي"[5]. ومِنَ الدارسين مَنْ يجعل مصطلح "الانفعال" بديلا عن العاطفة:" يشكل الانفعال محركا فاعلا للفن عموما وللشعر على وجه الخصوص، إذ لا تجربة فنية ولا شعرية دون انفعال سابق ومحرك لها"[6]. والعاطفة في الأخير هي الأساس الذي تنبني عليه عملية الإبداع الشعري، فالعاطفة هي الباعث الأول المحرك لعملية الإبداع يقول بعض الدارسين إن:" ..... الشعر لا ينبعث إلا عن إحساس ولا يصدر إلا عن عاطفة ووجدان"[7].

لقد أدرك النقاد في العصر الحديث قيمة العاطفة في العمل الفني منه بصفة عامة والشعري منه على وجه الخصوص فأفردوا مباحث مستقلة لمعالجة العاطفة وإن اختلفت المصطلحات التي أطلقوها عليها، وبينوا أثرها في الأعمال الفنية، وهو ما يُلِحُّ عليه د. محمد زكي العشماوي بقوله:" إن العاطفة هي التي تضفي على الفن ما في الرمز

---

(١)المرجع السابق: ص٧٣.

(٢) نفسه: ص٧٢.

(٣)د. أحمد كمال زكي:"مرجع سابق". ص٩١.

(٤)د.عبد الحميد حسين:"الأصول الفنية للأدب"، مكتبة الأنجلو المصرية: القاهرة، ط٢، ١٩٦٤م، ٧١.

(٥)المرجع السابق: ص٦٩.

(٦)د. عبد الله أحمد باقازي:"الشعر والموقف الانفعالي"، دار الفيصل الثقافية: الرياض، ١٩٩١م، ص٩.

(٧)د. يوسف حسين بكار:"بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث"، دار الأندلس: بيروت، ط٢، ١٩٨٢م، ص٦٣.

من خفة هوائية"[1]، ويقول:" إن العاطفة هي التي تهب الحدس تماسكه ووحدته وما كان الحدس أن يكون حدسًا حقًا إلا لأنه يمثل العاطفة"[2]. وهو ما يقرره د. حمد الدخيل على سبيل البديهة بقوله:" لذلك فإن أقوى الشعر وأصدقه ما صدر عن اقتناع وأملاه شعور صادق وتجربة حيَّة مؤثرة"[3]. والعاطفة كذلك هي:"الأسس والينابيع التي يتفجر عنها الشعر، وكأنهم أدركوا أن الطبع الموهوب لا يكفي وحده للتغريد بالشعر بل لا بد من مثير يدفع إلى قرضه وهو ما نسميه اليوم بالانفعال أو العاطفة"[4]. وكل هذه الآراء تتفق على أهمية العاطفة في العمل الشعري، وقيمتها الفاعلة فيه.

بيد أن التساؤل الذي يفرض نفسه الآن هو: ما العاطفة؟ وما التعريف الاصطلاحي لها والذي ستعتمد عليه هذه الدراسة؟. بداية يمكن القول: إن تعريف العاطفة بات شيئا سهلا نتيجة كثرة الدراسات المنهجية المتعمقة التي سيطرت على علم النفس وبفضل تعمق مباحثه وجِدَّة الأعمال التي ترصد قضاياه. ولا يخفى في هذا الصدد أن مناهج النقد في العصر الحديث كان لها دورها في تقديم تعريف دقيق لهذا المصطلح، بالإضافة إلى العلاقة الحميمة بين المناهج النقدية في العصر الحديث وعلم النفس، بحيث إننا لا نعرف ما إذا كان هذا التعريف من وضع المشتغلين بمناهج النقد الأدبي أم من وضع العلماء المشتغلين بعلم النفس. فالعاطفة هي:" الحالات النفسية التي تجري في الشعور كما يجري ماء النهر في مجراه، ولا تنقطع عن الحضور في الذهن ما كانت هناك حياة"[5]. والعاطفة كذلك بديل للمعاناة التي عاناها الشاعر:" فتكون العاطفة حينئذ هي بديل المعاناة التي عاناها الفنان وأحالت عليه مشاعره إلى طاقة تفعل من أجل حضور يعتمل في النص"[6]. ويعرف د. محمد زكي العشماوي العاطفة بقوله:" وإنما

---

(١)د. محمد زكي العشماوي:"قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث"، دار النهضة العربية: بيروت، ١٩٧٩م، ص١٠٠.

(٢)المرجع السابق: ١٠٠.

(٣)د.حمد بن ناصر الدخيل:" دراسات ومقالات في الأدب العربي"، ط النادي الأدبي بالمنطقة الشرقية: الدمام، ١٤٢٠هـ، ص٣٧.

(٤) د.أحمد أحمد بدوي:"أسس النقد الأدبي عند العرب"، دار نهضة مصر: القاهرة، ١٩٧٩م، ص٥٠٢.

(٥) د.أحمد كمال زكي:"مرجع سابق"، نفسه: ص٩٠.

(٦)المرجع السابق: ص ٩٣.

العاطفة في العمل الفني هي تجسيد للحظة شعورية معينة يسيطر عليها الفنان ويخضعها للصورة كما يخضع الصورة لها بحيث يصبح الشعور هو الشعور المصور والصورة هي الصورة المحسوس بها"[1].

تعريفنا للعاطفة: إن العاطفة التي نركز عليها هي كل الدوافع النفسية والطاقات الشخصية الكامنة والظاهرة داخل الإنسان، بالإضافة إلى أنها البواعث الوجدانية والانفعالية التي تسيطر على الإنسان وتفرض نفسها عليه وعلى إبداعه وقد يكون تأثيرها واضحا معلنا أو غامضًا خفيًا ولكن يبقى أثرها في الإبداع؛ فهي المحرك الأول فيه.

(٢)

## شخصية مروان بين العاطفة والمديح

يعد المديح الغرض الأول عند مروان بن أبي حفصة، كما أنه من أكثر الموضوعات التي طرقها، ولا يعرف بغرض من أغراض الشعر غير المديح، وليس أدل على هذا من الطغيان لأشعار المديح وقصائده في شعره الذي جمعه حسين حموي. فلقد مدح مروان ابن أبي حفصة الخليفةَ الأمويَّ – إذا صحت نسبة الأبيات التي وردت في الديوان إليه – الوليد بن يزيد في العهد الأموي، كما مدح معن بن زائدة الشيباني ومدح قومه كذلك وأقبل على مدح الخلفاء والوزراء والقواد والولاة في العهد العباسي، مع ملاحظة أنه لم يستطع الدخول بمديحه على الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور!.

يعدُّ مروان واحدًا من مدرسة عبيد الشعر التي يتزعمها أوس بن حجر والتي تبعه فيها زهير بن أبي سلمى وابنه كعب وتلاهم فيها الحطيئة وكان خلفهم فيها مروان بن أبي حفصة. وكما يروي ابن المعتز وغيره فإن مروان كان من المحككين لشعرهم الذين ينظمونه في أربعة أشهر، ثم يهذبونه وينقحونه في مثلها، ويعرضونه على الرواة والعلماء بالشعر من الشعراء والنقاد في أربعة كذلك، وفي الأخير ينشدونه ويقدمونه للممدوح بعد أن يستوفوا هذه المراحل مجتمعة، يقول ابن المعتز:" ومروان من المجيدين المحككين للشعر"[2]، ويقول المرزباني:"وكان مروان بن أبي حفصة ينقح

---

(١) د. محمد زكي العشماوي:"مرجع سابق"، ص ١٠٢.

(٢)ابن المعتز:" طبقات الشعراء"، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف: القاهرة، ١٩٥٦م، ص٤٥.

الشعر ويحككه ولم يكن مطبوعاً"[1]،وهو ما يؤكده الأصفهاني فيما يحكيه عن مروان نفسه بقوله:"إني إذا أردت أن أقول القصيدة رفعتها في حول، أقولها في أربعة أشهر، وأتنخلها في أربعة أشهر، وأعرضها في أربعة أشهر"[2]. وهو ما يعني سيطرة الرغبة في التجويد والإبداع على أشعاره، فما السبب الكامن وراء هذه الرغبة؟ وهل هو فعلا الرغبة في التكسب؟ أم أن هناك أمرًا آخر يدفعه إلى التجويد والتنقيح أقوى وأعمق من هذه الرغبة؟ وإذا وُجِدَ هذا الدافع بالفعل فما هو؟ وما الأدلة على وجوده؟ وبم نفسر التضارب في موقف الرجل من ممدوحيه إنْ وُجِدَ؟ وهل الأمر مرتبط بالصدق الفني وحده أم يتعداه إلى جوانب أخرى؟.

وسنبدأ من حيث انتهى التساؤل الأخير لنتعرف على شخصية مروان من خلال الجمع بين العاطفة والموضوعات الشعرية التي عالجها، ولا يخفى في هذا المقام أن الإجابة عن هذه التساؤلات لا يمكن أن تتم بمعزل عن العاطفة التي سيطرت على مروان والوقوف على حقيقتها من جانب؟، والإلمام بحال هذه الموضوعات الشعرية وطبيعتها تجاه هذه العاطفة من الجانب الثاني. وعلى صعوبة هذه المعادلة وصعوبة الإلمام بطرفيها إلا أن محاولة الإجابة عن هذه الأسئلة تشجع وتغري على الإقبال على هذه المخاطرة. ولو كانت الصعوبات والمخاطر هي المحك في الإقلاع عن البحث والدرس لما تقدم البحث الأدبي والنقدي ولما ظهر كثيرٌ من الدراسات الجادة والمبتكرة التي تركز على درس أدبنا ونقده. ويبدو لي أن المحفزات والدوافع في مثل هذه القضايا أقوى وأكثر بكثير من المثبطات، ولا يخفى أن الإقدام على المخاطر أولى من السكون والانتظار، كما أن الإقدام على العمل والبحث أولى من الركون إلى الراحة؛ ومناوشة القضايا ومحاولة دغدغتها أفضل دومًا من تركها راكدة جامدة لا أثر فيها للحياة، وعلى ذلك تصغر هذه المتاعب والصعوبات وتتلاشى بحيث إنها ترتد وترجع في صورة مثيرات قوية تدفع إلى البحث فما الشخصية التي يمكن استخراجها من أشعاره في المديح؟ إنها تتضح من خلال تأمل أشعاره في المديح، بالإضافة إلى أنها ستظهر أكثر عندما يُكْشَفُ عن علاقة هذه الأشعار بالعاطفة المروانية الخاصة. ويحسن بنا أن نُفْرِدَ لهذه

(١)المرزباني:"الموشح"، تحقيق محمد على البجاوي، دار الفكر العربي: القاهرة، د.ت، ص٣١٦.

(٢)أبو الفرج الأصفهاني:"الأغاني"، دار الكتب المصرية: القاهرة، د.ت، ١٠ / ٨٢.

الأشعار المدحيّة حتى نقف على حقيقة الشخصية المروانية وقوفًا منهجيًا ودقيقًا، وحتى نتمكن من استخراجها من خلال الجمع بين العاطفة والمديح، على هذا النحو:

(٣)

## شخصية مروان في العهد الأموي بين العاطفة والشعر

وتواجهنا في هذا الشأن أبيات مروان بن أبي حفصة التي قالها في مدح الوليد بن يزيد أيام العهد الأموي والتي يقول فيها:

إنّ بالشامِ الموقر عِزًّا ... وملوكًا مباركين شهودًا

سادةٌ من بني يزيدَ كِرَامًا ... سبقوا النَّاسَ مكرماتٍ وجودًا

هان يا ناقتي عليَّ فسيري ... أنْ تموتي إذا لقيتُ الوليدَا (١)

وقال كذلك في الاعتراف بفضل بني أمية عليه:

بَنُو مَرْوَانَ قَوْمِي أعْتَقُونِي ... وكُلُّ النَّاسِ بَعْدُ لَهُمْ عَبِيْدُ (٢)

فماذا تحمل هذه الأبيات؟ لا يمكن أن تقدم هذه الأبيات المفردة ما يصلح أن يُكَوّنَ حكمًا على مروان، فمن غير المعقول أن نقدم حكمًا من خلال الاعتماد على هذه الأبيات القليلة، ولكن إذا أردنا أن نقدم حكمًا على هذه الشخصية وحالها مع الأمويين فلا مفر من الاستئناس ببعض مواقفه لكي نبني رأيًا قريبًا من الصحة؛ جاء في الأغاني: "وكان مروان من أبخل الناس على يساره وكثرة ما أصابه من الخلفاء"؛ وقوله أيضًا: "وكان– مروان – لا يأكل اللحم بخلا حتى يَقْرَمَ إليه، فإذا قَرِمَ أرسل غلامه فاشترى له رأسًا فأكله. فقيل له: نراك لا تأكل إلا الرءوس في الصيف والشتاء، فلم تختار ذلك؟ قال: نعم! الرأس أعرفُ سعره، ولا يستطيع الغلام أنْ يغبِنَنِيَ فيه، وليس بلحم يطبخه الغلام فيقدرَ أنْ يأكل منه، إنْ مسَّ عينًا أو أذنًا أو خدًا وقفتُ عليه، فآكلُ منه ألوانًا آكلُ عينيه لونًا، وأُذُنَيْهِ لونًا، وغَلْصَمَتَهُ لونًا، وأُكْفَى مؤونةَ طبخه فقد اجتمعت لي فيه مرافق"(٣).

وقال الجاحظ في وصف شحّ مروان وتقتيره وحرصه البالغ على المال:" أو مَنْ يشقُّ غُبار

---

(١)مروان بن أبي حفصة:" شعره"؛ تحقيق د. حسين عطوان، دار المعارف: القاهرة، ط٣، ١٩٨٢م، ص٣٣.

(٢)المصدر السابق: ص ٣٥.

(٣)أبو الفرج الأصفهاني:" مصدر سابق"، ١٠/ ٧٧.

مروان بن أبي حفصة ... فهو أبخلُ من مادر"[1].

إن في هذه الأقوال ما فيها من تأكيد على شهوة حبِّ المال الذي قدسه مروان وسار تحت ركابه، فهو أسيرٌ للمال، بل إنه مخلصٌ ووفيٌّ له. فلقد أعلى مروان من قيمة المال وبالغ في الحرص عليه وانطلق في السعي للحصول عليه بكل سبيل لدرجة أنه لم يخلص في نظري إلا لهذا المال الذي ملك عليه زمام أموره كلها؛ حتى أوقعه في التقتير على نفسه وحرمانها من أقل الطيبات. ولقد كانت آثار هذا البخل واضحة عليه هو قبل أي شيء آخر؛ فذاق من شررها ما لم يذقه الفقير المعدم! وقد جاء في الأغاني رأيٌ له دلالته في هذا السياق، فقد قيل لمروان بن أبي حفصة: " .... والله لما يُرَى من أثر البخل عليك أضرُّ من الفقر لو كان بك "[2]. ففي هذا الرأي ما فيه من دلالة على غرق مروان في شهوة حب المال غرقًا؛ بل وأهم ما فيه أنه يكشف عن حقيقة الشخصية المروانية. وفي هذا البيت الذي أنشده رجل من بني بكر بن وائل من الدلالة على حقيقة الشخصية المروانية ما فيه من الكفاية والوضوح: قال الرجل:

وليس لِمَرْوَانٍ على الْعِرْسِ غَيْرَةٌ ولكنَّ مرْوَانًا يَغَارُ على الْقِدْرِ [3]

ويعلن مروان عن هذه الشخصية إعلانًا صريحًا ومباشرًا في قوله مفتخرا بحب المال مبينًا ما حققه من كسب مادي، ومعروف أن الإنسان عندما يفخر يقدم أولويات الفخر على أساس الأهم عنده. كما أنه يركز ويقدم ما يمثل له أهمية خاصة؛ يقول:

مـا نالـتِ الـشُّعراءُ مـن مُـسْتَخْلَفٍ ما نِلْتُ مِنْ جَاهٍ وأَخْذِ بُدُوْرِ
عَـزَّتْ معًا عِنْدَ المُلُـوْكِ مَقَـالَتِي ما قالَ حَيُّهُمُ مَعَ المقبُورِ
ولقـد حُبِيْـتُ بِـأَلْفِ أَلْـفٍ لـمْ تُثَـبْ إلا بِـسَبَبِ خَلِيْفَـةٍ وَ أَمِيْـرِ
مـا زِلْـتُ آنَـفُ أنْ أُؤَلِّـفَ مِدْحَـةً إلا لِـصَاحِبِ مِنْبَـرٍ و سَـرِيْرِ [4]

وتدلل قصة الضيف الذي تركه مروان لئلا يكرمه على شخصيته، مع أن هذا الضيف قد أحضر ضيافته لنفسه ولمروان على حدٍّ سواء؛ أورد صاحب العقد الفريد والبيهقي وابن

---

(1)الجاحظ: " البخلاء"، تحقيق د. طه الحاجري، دار المعارف: القاهرة، ١٩٦٣م، ص٥٦.

(2)أبو الفرج الأصفهاني: " مصدر سابق"، ١٠/ ٧٨.

(3)المصدر السابق: ١٠/ ٧٩.

(4)ابن المعتز: " مصدر سابق"، ص٤٦، ٤٧، ومروان بن ابي حفصة: "مصدر سابق"، ص٥٦، ٥٥.

قتيبة هذه القصة بقوله:"قال الهيثم ابن عدي: نزل بابن أبي حفصة ضيف باليمامة، فأخلى له المنزل، ثم هرب عنه مخافة أنْ يلزمه قراه تلك الليلة. فخرج الضيف فاشترى ما يحتاج إليه ثم رجع وكتب إليه:

يأيّهـا الخـارجُ مِـنْ بَيْتِـهِ ... وهَارِبًا مِن شِدَّةِ الخوفِ
ضَـيْفُكَ قَـدْ جَـاءَ بِخبْـزٍ لَـهُ ... فَارْجِعْ وكُنْ ضَيْفًا على الضَّيْفِ"(١)

إن إنسانًا بهذه الشاكلة قد غلب عليه حب المال وجمعه لا يمكن أن يجتمع في قلبه حُبُّ شيء آخر معه إلا أن يكون هذا الحب متمثلا في الأنانية التي تغذي جشعه المادي، ومن الصعب أن يجتمع لديه هذا النهم الطاغي نحو المال وجمعه والإخلاص له مع الإخلاص لأي شيء آخر كائنا ما كان. وعليه فإن مروان لم يصدر لا عن عاطفة صادقة ولا عن إخلاص حقيقي في مدحه للأمويين؛ فلم يحب مروان الأمويين أو غير الأمويين– ولا نبالغ إذا قلنا: إن ذات مروان لم تنعم أو تفد من هذا الحب– وإنما أحب مالهم وعطاءهم؛ ولم يخلص لهم كما يدعي بعض الدارسين:"وإذن فالولاء الأصيل لمروان بن أبي حفصة إنما كان للأمويين دون العباسيين"(٢)، وكذلك:"وهنا يجدر أن نؤكد أن مروان بن أبي

---

(١)ابن عبد ربه:" العقد الفريد"، تحقيق أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الأبياري، ط مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر: القاهرة، ط٣، ١٩٦٥م، ٦/ ١٨٥.

– البيهقي:"المحاسن والمساوئ"، تحقيق أحمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة نهضة مصر:القاهرة، ١٩٦١م، ١/ ٤١٩. وجاءت رواية البيهقي في أربعة أبيات، هي:

يـا تَـارِكَ البيـتَ علـى الضَّيْفِ ... وهَارِبًا منه مِنَ الخوفِ
ضَـيْفُكَ قَـدْ جَـاءَ بِـزَادٍ لَـهُ ... فَارْجِعْ فَكُنْ ضَيْفًا على الضَّيْفِ
إذا اشـتَهَى الضَّيْفُ طَبِيخَ الشِّتَا ... أَتَاهُ بالشَّهْوَةِ في الصَّيْفِ
وإنْ دَنَـا المِسْكِيْنُ مِـن بابِـهِ ... شَدَّ على المِسْكِيْنِ بالسَّيْفِ

–ابن قتيبة:" عيون الأخبار"، تحقيق د.مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية: بيروت، ط٣، ٢٠٠٣م، ٣/ ٢٧١. ورواية البيتين في عيون الأخبار:

يا تَارِكَ البيتَ على الضَّيْفِ ... وهَارِبًا منه مِنَ الخوفِ
ضَيْفُكَ قدْ جاءَ بِخبْزٍ لَهُ ... فَارْجِعْ فَكُنْ ضَيْفًا على الضَّيْفِ

(٢)د. مصطفى الشكعة": الشعر والشعراء في العصر العباسي"، دار العلم للملايين: بيروت، ط ٩، ١٩٩٧م، ص٣٥.

حفصة لم يكن مخلصًا في ولائه للعباسيين، وإذا كان له ولاء وإنما كان أموي الهوى والولاء"[1]. وتبدو هذه الآراء محرجة لأصحابها لأنها ما زالت بحاجة إلى سند من الأدلة والبراهين التي تقويها، ولأنها بعيدة كل البعد عن حقيقة الرجل الذي لم يخلص لشيء قط في حياته إلا للمال الذي كان صادقا وأمينا في التعبير عن حبه له وكان صادقًا وأمينًا في السعي نحو اكتنازه، وكان صادقًا وأمينًا مع نفسه ومع غيره في الصدور عن شهوته، وهو ما يقود إلى نتيجة متوقعة وحتمية، وهي أن مروان كان صادرًا في مدائحه للأمويين من كونهم الوسيلة فحسب التي تقوده إلى تحقيق حبه الخالص للمال وإرضاء شهوته العارمة له، وهو ما يقود إلى المفتاح الأول في هذه الشخصية المروانية. هذا هو الخيط الأول – نحو اكتشاف هذه الشخصية – الذي يتمثل في أن الرجل لم يخلص لشيء إخلاصه للمال الذي يقدسه، وكيف لإنسان جار على نفسه وتنكر لها وحرمها وقسا عليها في المقام الأول– كما مرَّ من شدة تهالكه وحرصه على المال– أن يخلص لغيره؟ إنه المحال!. فالرجل صادق أمين يَمْدَحُ ويُجَوِّدُ في المدح ليس من أجل العاطفة الصادقة نحو الممدوح أو من أجل الإخلاص والحب الذي يكنه للممدوحين، ولكنه يصدر في هذا كله استجابة لما يحقق له شهوته الخاصة، تلك الشهوة العارمة والطاغية طغيانًا لا ينقطع عند حدٍّ أو ينتهي عند مقام، إنه المال الذي سيطر على وجدانه وملك عليه عقله فانفعل به وجدَّ في طلبه وسَخَّرَ كل مواهبه من أجل الحصول عليه.

ولم يكن عجيبًا أن ينطبق قول الرسول صلى الله عليه وسلم:"منهومان لا يشبعان، طالب علم وطالب الدنيا"[2] على مروان كل الانطباق، ولم يكن عجيبًا أن تجتمع عليه

---

(١)المرجع السابق: ص٣٤.

(٢)الدارمي:"سنن الدارمي"، تحقيق فواز أحمد زمرلي وخالد السبع العلمي، دار الريان للتراث: القاهرة، ١٩٨٧م، مج١/ ١٠٨،[حديث رقم ٣٣٤].وجاء إسناد الحديث:"حدثنا إسماعيل بن أبان حدثنا عبد الله بن إدريس عن ليثٍ عن طاوس عن ابن عباس قال:**"منهومان لا يشبعان، طالب علم وطالب الدنيا"**.

* وقد أورد الطبراني هذا الحديث في المعجم الكبير بهذه الرواية والإسناد:"أخبرنا أحمد بن عبد الله بن محمد قال: أخبرني أبي، حدثنا عبد الله بن يونس، حدثنا بقي بن مخلد، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا إدريس عن ليث عن طاوس عن ابن عباس قال:"منهومان لا تنقضي نهمتهما: طالب علم وطالب الدنيا".

– الطبراني:"المعجم الكبير"، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، مطبعة الزهراء: الموصل، ط٢، ١٩٨٤م، مج١١/ ٧٦، ٧٧. [والحديث رقم ١١٠٩٥].

مثل هذه الآراء، يقول د.طه حسين:"وإنما كان مروان يعبد المال عبادة، ويقدسه تقديساً، وكان فيما بينه وبين نفسه يزدري الأمويين والعباسيين والعلويين، وكان فيما بينه وبين نفسه مقتنعًا بأن يفوز بأموال العباسيين، فلو أدال الله منهم للأمويين أو العلويين لسار مع الدولة الجديدة سيرته مع الدولة القديمة ليظفر منها بالمال الذي يعبده ويقدسه"[1]. وحكم د. طه حسين على مروان بأنه يعبد المال ويقدسه حكم فيه بعد نظر ودقة منهجية في الحكم، أما قوله بأن مروان يكره الأمويين والعباسيين والعلويين فلا يقوم الدليل عليه ويعد في نظري مبالغة من مبالغات د. طه حسين التي يميل فيها إلى الخروج من موضوعه ليستطرد في موضوع آخر. ولقد كانت شخصية مروان مكشوفة للعيان عند دارس آخر، حيث يرى أن مروان علم على رأسه نار في مملكة البخل والشحّ، يقول:" كان-مروان- يحب المال وتكديسه / يحرم على نفسه طيب الطعام ونفيسه، فلقد كان بخيلا من بخلاء العرب. وهذا سر تهالكه على المال وجمعه إياه وهذه صفته التي تميز بها"[2]، ويقول أيضًا:" ..... وجمع- مروان- المال لأنه ممن يحبون جمعه ولا يحبذون تفريقه، فلقد كان مروان بخيلا شحيحًا مقترًا بكل ما تحمله تلك الألفاظ من معانٍ، لم يكن هذا شأنه مع نفسه- فحسب- ولكنه مع الناس أيضًا. ولئن كان بخلاء العرب أربعة هم أبو الأسود الدؤلي، والحطيئة، وخالد بن صفوان، وحميد بن ثور، فلنعتبره

---

* وأورد هذا الحديث ابن عبد البر أيضا بهذه الرواية والإسناد قال":"حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي، حدثنا محمد بن إسحاق بن أيوب الرازي، حدثنا جرير عن ليث عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما أحسبه رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال:**"منهومان لا يقضي أحدهما نهمته، منهوم في طلب العلم ومنهوم في طلب الدنيا"**.

- ابن عبد البر:"جامع بيان العلم وفضله"، تحقيق أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي: المملكة العربية السعودية، ط٤، ١٤١٩هـ، مج١/ ٤٠٤. [والحديث برقم ٥٨٣]. وقد صحح الألباني هذا الحديث وقال:"لكن هذا الحديث عندي صحيح...ولا بأس به". مع ملاحظة أن رأي الألباني في تقوية هذا الحديث قد أثبته أبو الأشبال الزهيري في تحقيقه لكتاب ابن عبد البر جامع بيان العلم وفضله السابق في حاشية ص٤٠٥ / من مج١١.

(١)د. طه حسين:" حديث الأربعاء"، دار المعارف: القاهرة، ط١٠، د.ت، ٢/ ٢٣٠.

(٢) إسماعيل بن حمد السماعيل:"شاعر اليمامة مروان بن أبي حفصة"، مكتبة الملك فهد الوطنية: الرياض، ١٤١٤هـ، ص ١١٠.

خامساً ولننصبه عليهم رئيساً، لأنه بلغ في البخل غايته واحتل قمته"[1]. ويقول من طريق ثالث:".....ولكن الذي يدعو إلى الغرابة هو مناقضة مروان لطبعه إذ يحث الناس على الكرم ويحذرهم مغبة البخل والشحّ مع أنه في مملكة الشحّ علمٌ في رأسه نار وفي سمائها نجم لا يتغور"[2]. ويقول في الأخير:" وعلى أي حال فإنني لا أكاد أجد لفظًا أو وصفًا يصور بخله وشحّه، لأنه جلّ في ذلك عن الوصف وعلا على التشبيه"[3].هذه هي حقيقة الشخصية المروانية التي تتبدى من خلال مديحه وعاطفته في العهد الأموي، والتي يعلنها مروان نفسه إعلانا صريحًا ويلخصها تلخيصًا مباشرًا وواضحًا حيث يقول:

**وما فعلتْ بنو مروان خيرًا ولا فعلت بنومروان شرًا**[4]

فهل أخلص مروان بن أبي حفصة لبني أمية أم أنه أخلص للمال الذي أحبه؟ لم يخلص مروان في نظري إلا للمال ولم يحب إلا المال ولم ينفعل إلا لهذا المال، هذه هي شخصية مروان تجدها في بيته السابق الذي انسلخ فيه مروان انسلاخًا من بني أمية وكأنهم أعداء يتبرأ منهم. لكي يرجع مرة ثانية إلى المال ولكي يعاود ثانية الحصول عليه، إنها شهوة حبِّ المال التي توجه صاحبها وتدفعه إلى الإخلاص لها مستهينًا بكل القيم مهما عظمت من أجلها، هذه هي شخصية مروان وتلك حقيقته وحقيقة عاطفته في العهد الأموي فما هي حقيقة هذه الشخصية المروانية في العهد العباسي؟ وتواجهنا في هذا السياق أشعاره في مدح معن بن زائدة الشيباني وغيره من رجالات الدولة العباسية، سواء أكانوا خلفاءً أم وزراءً أم ولاةً، على هذا النحو:

## (٤)

## شخصية مروان في مدح معن بن زائدة بين العاطفة والشعر

لقد قال مروان أجمل مدائحه وأرْقَاهَا في الثناء على معن بن زائدة الشيباني، لدرجة أن مدائحه في معن قد ألبت عليه الخلفاء العباسيين والبرامكة. فهل السبب في هذا راجع إلى صدق مروان في عاطفته تجاه معن بن زائدة وإخلاصه له؟ وما حقيقة الشخصية

---

(١) المرجع السابق: ١١٠.

(٢) نفسه: ١٥٤.

(٣) نفسه:١١١.

(٤) مروان بن أبي حفصة:"مصدر سابق"، ص٤٣.

المروانية في هذا المديح؟. من المعروف أن مروان أنشد غرر شعره في مدح معن هذا، ومن المعروف كذلك أنه تغنى في مدائحه لمعنٍ هذا غناءً، والأهم من هذا كله أن مدائح مروان في معن كانت محطَّ أنظار الخلفاء العباسيين وموضع إعجابهم، فهؤلاء الخلفاء رأوا فيها النموذج الراقي الذي يجب أن يلتزم به الشعراء عند مدحهم. وفي القصة التي أوردها صاحب العقد الفريد بين الخليفة العباسي هارون الرشيد مع رجل من بني أسد أفرط في مدحه خير دليل على هذا، جاء في العقد: "قال شراحيل بن معن بن زائدة: حج هارون الرشيد وزميله أبو يوسف القاضي وكنت كثيرًا ما أسايره إذْ عرض له أعرابي من بني أسدٍ فأنشده شعرًا مدحه فيه وأفرط، فقال له هارون: ألم أنهك عن مثل هذا في مدحك يا أخا بني أسد؟ إذا قلت فينا فقل كقول القائل في أب هذا:

بَنُو مَطَرٍ يَوْمَ اللِّقَاءِ كَأَنَّهُمْ ... أُسُودٌ لَهَا فِي غِيْلِ خَفَّانَ أَشْبُلُ
هُمُ يَمْنَعُونَ الجَارَ حَتَّى كَأَنَّمَا ... لِجَارِهِمُ بَيْنَ السِّمَاكَيْنِ مَنْزِلُ
بَهَالِيْلُ فِي الإِسْلامِ سَادُوا ولَمْ يَكُنْ ... كَأَوَّلِهِمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ أَوَّلُ
ومَا يَسْتَطِيْعُ الفَاعِلُونَ فِعَالَهُمْ ... وإِنْ أَحْسَنُوا فِي النَّائِبَاتِ وأَجْمَلُوا
هُمُ القَوْمُ إِنْ قَالُوا أَصَابُوا وإِنْ دُعُوا ... أَجَابُوا وإِنْ أَعْطَوْا أَطَابُوا وأَجْزَلُوا"[1]

ويعلق ابن خلكان على هذه الأبيات بقوله: "هذا لعمري السحر الحلال المنقح لفظًا ومعنىً، وحقه أن يفضل على شعراء عصره وغيرهم"[2]. ومن مديح مروان في معن بن زائدة الشيباني أيضا ما أورده ابن عبد ربه: "قال العتبي: لما قدم معن بن زائدة البصرة واجتمع لديه الناس، أتاه مروان بن أبي حفصة فأخذ بِعَضَادَتَيْ الباب فأنشده شعره الذي قال فيه:

فَمَا أَحْجَمَ الأَعْدَاءُ عَنْكَ بَقِيَّةً ... عَلَيْكَ ولَكِنْ لَمْ يَرَوا فِيْكَ مَطْمَعَا
لَهُ رَاحَتَانِ الحَتْفُ والجُودُ فِيْهِمَا ... أَبَى اللهُ إلا أَنْ تَضُرَّ وتَنْفَعَا"[3]

ومن يقرأ هذه الأبيات قد يظن أن مروان بن أبي حفصة أخلص لمعن بن زائدة إخلاصًا

---

(١) ابن عبد ربه الأندلسي: "مصدر سابق"، ١ / ٣٠٨.
– وفي رواية شعره ص٨٨، تقديم للبيت الأخير [ الخامس ]، مكان البيت الرابع.

(٢) ابن خلكان: "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان"، تحقيق د.إحسان عباس، دار صادر: بيروت، ١٩٧٧م، ٥ / ١٩١.

(٣) ابن عبد ربه الأندلسي: "مصدر سابق"، ١ / ٣٠٢، والبيتان أثبتا على رواية شعره ص٦٤.

منقطع النظير، وأنه نظم هذه الروائع انطلاقًا من حبه لهذا الرجل الكريم السخي الذي أفاض عليه وأغناه. فما حقيقة الشخصية المروانية في هذه المدائح؟ وما طبيعة العاطفة التي تسيطر على مروان فيها؟ الأمر الذي يتراءى لي أن مروان لم يكره معنًا ولم ينافقه!! بل إنه أحبه وأقبل عليه. ومع ذلك فلقد كان هذا الحب والإخلاص منصرفًا في الأساس إلى الأموال والعطايا التي يقدمها هذا الرجل العظيم، ولا مانع من أن يحب مروان هذا الرجل الذي أفاض عليه نتيجة للعطاء الوافر الذي غمره به. ولا مانع لدى مروان كذلك من أن يخلص لمعن أو لغيره من الأشخاص طالما أنهم أكرموه. فحب مروان في الأول والأخير إنما هو حبٌّ خالصٌ للأموال التي يغرم بها، وسوف ينصرف حبُّ مروان وإخلاصه لِمَنْ يقدم له المال كائنًا ما كان اسمه، فعاطفة مروان الحقيقية معقودة مع المال ومرتبطة بها ارتباطًا وثيقًا وإخلاص مروان لهذه العاطفة سوف يسبق هؤلاء الممدوحين، ولا عجب في هذا لأن مروان قد أحبَّ المال قبل كل شيء، فإخلاص مروان لهم إخلاص ثانوي يكون على قدر ما يقدمون له من هبات وعطايا، هذه هي الشخصية المروانية التي تطل من خلال استخلاص عاطفته من مدائحه لمعن بن زائدة.

ولم يكن مروان مخلصًا لمعن أو غيره كما قد يتوهم بعض الدارسين، وذلك لأن رجلا بصفات مروان لا يمكن أن يخلص إخلاصًا صادقًا، ولأن طلب المال والحرص على تحصيله وكسبه بكل سبيل يجعله متوجسًا بل قلقًا وحريصًا على الإكثار والاكتناز، ومن غير شك فإن حالة الحرص والقلق التي تسيطر عليه تصرفه عن الإخلاص الكامل لشيء إلا للمال، وعلى هذا تعد هذه الأقوال والأحكام والآراء التي تركز على الصدق أو الكذب من قبيل الوهم بهذا الرجل وطبيعته التي جبل عليها، فهل أخلص مروان لمعن كما نرى:" ولكن هناك أمرًا مهمًا تجب الإشارة إليه وهو أن مروان سلك مع معن طريقًا لم يسلكه مع ممدوح سواه لأنه كان يمدح أحيانا بدافع من عاطفة مادية بحتة كما في علاقته مع خلفاء بني العباس فيما بعد، فإنه لم يكن كذلك مع معن بل كان مادحًا له بدافع من عاطفة صادقة، ولهذا جاء مديحه له متسمًا بحرارة الصدق ولهجة الإخلاص نظرًا لاتفاق المذهب السياسي الذي يجمع بينهما وذلك يتمثل في ولاء معن ومروان للأمويين"[1]، كما

(١) إسماعيل بن حمد السماعيل: "مرجع سابق"، ص٤١.

رأينا فلقد تحلل مروان من الأمويين وانسلخ منهم، ولو كان مروان مخلصًا لهم إخلاصًا حقيقيًا لما تحلل منهم هذا التحلل ولو كان مروان صادقا في عاطفته لهم لما انسلخ منهم هذا الانسلاخ المهين، ولم يكن مروان كذلك مخلصًا لمعن أو صادقًا معه صدقًا خالصًا على الرغم من كل ما سجله من قصائد في مديحه؛ ولم تخدع هذه المدائح د.طه حسين في تقديم رأيه في مروان حيث رأى أن أشعار مروان لم تكن مرآة له بحيث يؤثر الرأي ويضن بالنفس في سبيل الإخلاص لمن يحب، يقول: " فقد كان مروان بن أبي حفصة محبًا للمال، شرهًا إليه، لا يشبع منه.....وإنما كان مروان يعبد المال عبادة ويقدسه تقديسًا.....كان رجلا عمليًا يعنيه أن يظفر بالمكانة والثروة.....فهو راغب حين يمدح يطلب المال ويحرص على أن يظفر به، فمعقول أن يجيد، وأن يبلغ من الإجادة حظًا عظيمًا"[1].

ليس مروان إذاً ممن يخلصون في حبهم أو ولائهم، وليس مروان كذلك ممن يثبتون على رأي أو يعتدون بموقف، إلا أن يكون هذا الإخلاص والحب والولاء منصرفًا إلى المال، فهنا سنجد مروان يفعل الأفاعيل من أجله وسنجد مروان يثبت على رأي وسنجد مروان يعتد بموقف صلب وثابت، هذا هو مروان وذاك إخلاصه وتلك شخصيته، فالرجل أمين مع نفسه مخلص لها ينطلق منها بكل ثبات ويصدر عنها في صدق وإخلاص. وعلى هذا فالذي يغلب على الظن أن مروان لم يخلص لأحد من ممدوحيه وإنما أخلص قبل كل شيء وبعده لنهمه الخاص الذي جعله يبخل حتى على نفسه من أجله؛ إنها الرغبة في جمع المال والشراهة في اكتنازه؛ بل إنها الشهوة المفرطة التي تسيطر على صاحبها فلا يحيد عنها قيد أنملة. فأن نأتي ونقول: إن الرجل قد أحب وأخلص لغير المال؛ فهذا لون من العبث، وضرب من التناقض!. خاصة إذا ما كنا نتحدث عن مروان ونريد أن نستخرج شخصيته التي تحركه من خلال الجمع بين العاطفة والشعر.

ونخلص من هذه المعادلة إلى نتيجة أخرى أكثر حسمًا؛ وتتخلص في أن ممدوحي مروان ابن أبي حفصة لا يمثلون شيئا ذا قيمة في ذواتهم بالنسبة لمروان إلا من خلال ما يقدمونه له من أعطيات وما يهبونه له من مال. باتت المعادلة واضحة بعد وضعها على

---

(١) د. طه حسين: "مرجع سابق"، ص٢٣٠، ٢٣٥.

ميزان العاطفة عند مروان، وعلى هذا ينبغي ألا نقول: إن مروان قد أحب الأمويين أو أنه أخلص في مدائحه لمعن بن زائدة وانطلق فيها من الإخلاص لهذا الرجل أو غيره من ممدوحيه إلا إذا كان هذا الحكم يعني الحب المشروط والإخلاص للمصالح المتبادلة في هذه الحالة نكون قد قدمنا رأيًا مقبولا؛ لأن الجميع يعرفون حقيقة هذا الحب المشروط ويعرفون كذلك مصداقية الإخلاص الذي توجده المصالح؛ فهو حبٌّ زائفٌ وقول مؤقتٌ وإخلاصٌ عابرٌ لا يتجاوز المرحلة التي تقدمه، مهما بدا عليه في الظاهر من علامات قد ينخدع لها البعض.

ولم تكن هذه العاطفة التي تسيطر على مروان بخافية على ممدوحيه – في نظري – فكلهم يعلم ذلك فيه وكلهم يعلم أن إخلاص الرجل الأول والأخير مرتبط بالمال؛ فالمال هو حبه الذي يسيطر عليه ظاهرًا وباطنًا؛ وليس المديح الذي يدبجه مروان فيهم إلا استجابة ظاهرية لهذا الحب وذلك الإخلاص، وليس هذا المديح إلا وسيلة لإرضاء العاطفة الخاصة لدى الرجل. فهذه العاطفة هي التي تدفعه إلى المديح وهي نفسها التي تقوده إلى التجويد في مدائحه، بالإضافة إلى أنها دائمة الإلحاح عليه من أجل الوصول إلى القمة في المديح.

ويمكن تفسير السبب في انقطاع مروان بن أبي حفصة إلى معن بن زائدة الشيباني تفسيرا جديدًا من هذا المنطلق يتلخص في أن هذا الانقطاع ما هو إلا وسيلة لجذب انتباه وإعجاب الخلفاء العباسيين إليه، وهو الذي جعله يحرص على التجويد في شعره، بل والإفادة من كل أدواته وتسخيرها لتحقيق هذا الهدف. وليس هذا بمستبعد على مروان – الذي غلبت عليه شهوة المال – أن يسعى إلى تقديم أفضل ما يملك من أجل النجاح في مهمته خاصة وأنه يعرف طريقه معرفة دقيقة، ويعرف كيف يصل إلى غايته من أقصر الطرق. وهو ما يقود إلى اليقين الكامل من أن العاطفة التي سيطرت على مروان ابن أبي حفصة وانفعل لها تتمثل في حب المال؛ فالمال هو شهوة الرجل الوحيدة ولذا كان شرها في حبه بل متطرفًا في هذا الحب ومدمنا لهذه الشهوة التي لم يخلص إلا لها ولم يحب إلا إياها. وأعود إلى تأكيد ذلك فأقول: لم تكن هذه العاطفة التي تسيطر على مروان بخافية على ممدوحيه؛ فكلهم يعلم ذلك فيه. ولكن كلهم يعلم أيضا أن هذه العاطفة على حقيقتها هذه هي التي تقدم لهم القصائد المدحية المجودة واللازمة

لتخليدهم وتخليد سجاياهم، كما أن هذه العاطفة هي السبيل الوحيد لتخليد ذكراهم في سجل التاريخ والثناء عليهم وإظهار محاسنهم والإشادة بخصالهم، كما أن هذه العاطفة في الأخير هي السبيل المناسب لإرضاء نهمهم هم في الرغبة في المدح والإطراء لخلالهم الكريمة ومواهبهم النبيلة. فكل من مروان وممدوحيه يعلم حقيقة صاحبه ويعلم حقيقة بضاعته لو جاز التعبير ولِمَ لا يجوز فهؤلاء الممدوحون يجودون بالمال ومروان يجود بالمديح- فالمصلحة موجودة عند الطرفين لا غنى لأحدهما عن الآخر. وعلى هذا فلقد كان هؤلاء الممدوحون أكثر جشعًا ونهما من مروان، حيث سيطرت عليهم شهوة حبِّ الثناء والرغبة في تسجيل الذات ومدح خلالها وتخليد هذه الخلال في سجل التاريخ فكالوا لمروان الأموال / أو بمعنى أدق أعطوه الوسيلة التي يحتاج إليها لتحقيق مرادهم هذا. ولا يخفى أن الوسيلة عندهم تعد هدفًا ثمينا عند مروان، وعلى هذا فالعلاقة بين مروان وممدوحيه علاقة متبادلة تقوم على الرغبة من الطرفين فالتوازن هو ميزانها وأساسها الذي يتحكم في مجرياتها.

وهذه النتيجة تدفع إلى القول بأن: شخصية مروان شخصية واضحة المعالم لمن فهمها، وهي شخصية تنطلق من عاطفة واحدة وثابتة في كل أشعاره في المديح! وأين الغموض في هذه الشخصية التي تعلن عن نفسها بكل تبجح؟ وتطلب المال صراحة وبأعلى صوت في كل مناسبة؟؟. فلو كان الإخلاص هو الأساس في أشعار مروان التي نظمها في مديح معن لما رأينا كل هذه الإشارات الظاهرة بل والمبتذلة - ولا نغالي إذا ما قلنا: الإشارات الرخيصة - التي تحمل التذكير والحث لمعن على إعطائه الكثير!! أليس هو القائل في طلب النوال وطلب المال بل استجداء المال استجداء في غير ملل أو دونما سأم؟؟، أليس هو القائل في قصيدة واحدة؟:

- لَوْلا رَجَاؤُكَ ما تَخَطَّتْ نَاقَتِي ... عَرْضَ الدَّبِيْلِ وَلا قُرَى نَجْرَانِ
نِعْمَ الْمَنَاخُ لِرَاغِبٍ ولِرَاهِبٍ ... مِمَّنْ تُصِيْبُ جَوَائِحُ الأَزْمَانِ
- إنْ عُدَّ أَيَّامُ الفَعَالِ فَإِنَّمَا ... يَوْمَاهُ يَوْمُ نَدىً ويَوْمُ طِعَانِ
- كِلْتَا يَدَيْكَ أَبَا الْوَلِيْدِ مَعَ النَّدَى ... خُلِقَتْ لِقَائِمِ مُنْصُلٍ وَعِنَانِ

- فَإِذَا صَنَعْتَ صَنِيْعَةً أَتْمَمْتَهَا وَرَبَبْتَهَا بِفَوَائِدِ الإِحْسَانِ[1]

هذا هو مروان الحريص على توريط الممدوح بكل سبيل، فهو لا يكف عن المسألة والاستجداء وهو كذلك دائم التذكير للممدوح على ضرورة العطاء. وهل بعد قوله: "لَوْلا رَجَاؤُكَ ما تَخَطَّتْ نَاقَتِي عَرْضَ الدَّبِيْلِ وَلا قُرَى نَجْرَانِ" قول أو رأي. إن مروان لا يهدأ ولا يملُّ ولا يكلُّ عن طلب العطاء فهو يفرض نفسه على الممدوح فرضًا، وهذه الصفة تمثل سمة غالبة وطابعًا عامًا في كل أشعاره. ولِمَ لا تمثل ظاهرة عند الرجل؟ وأي ظاهرة!! إنها الظاهرة التي تحمل معها مفتاح شخصية مروان ابن أبي حفصة، وإذا كان لكل شخصية مفتاح تعرف منه وتقرأ من خلاله فإن المفتاح السحري الذي تنطوي عليه شخصية مروان يتمثل في شراهة الرجل وشهوته وحبه للمال. وهذا المفتاح السحري هو الذي يرفع العجب والحجب عن الرجل ويفسر السبب في حرصه على أن يجعل المال والبذل والعطاء مركزًا تدور حوله القصيدة كلها وتنبني عليه، خاصة وأنه يقدمه على المديح ويجعله شريكًا أساسيًا في أشعار المديح، نراه يقول أيضا:

قَدْ أَمَّنَ اللهُ مِنْ خَوْفٍ ومِنْ عَدَمٍ مَنْ كَانَ مَعْنٌ لَهُ جَارًا مِنَ الزَّمَنِ
مَعْنُ ابْنُ زَائِدَةَ المُوفِي بِذِمَّتِهِ والمُشْتَرِي المَجْدَ بالغَالِي مِنَ الثَّمَنِ
يَرَى العَطَايَا الَّتِي تَبْقَى مَحَامِدُهَا غُنْمًا إِذَا عَدَّهَا الْمُعْطِي مِنَ الْغَبَنِ
بَنَى لِشَيْبَانَ مَجْدًا لا زَوالَ لَهُ حَتَّى تَزُولَ ذُرَى الأَرْكَانِ مِنْ حَضَنِ[2]

ويمكن القول إن حب المال والرغبة فيه هو القوس الذي تصدر منه صفات المدح عند مروان ولولا هذه الشهوة والرغبة نحو المال واكتنازه لما قدم مروان هذه المدائح السائرة ولما تحركت شاعرية الرجل ولما جادت قريحته بهذه الأوصاف الخالدة، وإذن ما معنى أبيات مروان السابقة غير الملاحقة المستمرة للممدوحين في سبيل الوصول إلى الأموال؟ وماذا يعني قوله على وجه الخصوص؟: "يَرَى العَطَايَا الَّتِي تَبْقَى مَحَامِدُهَا غُنْمًا إِذَا عَدَّهَا الْمُعْطِي مِنَ الْغَبَنِ"، غير الإلحاح ومعاودة السؤال من حين لآخر. ويواصل مروان حملاته في فرض نفسه على الممدوح، وبمعنى أدق فرض إتاوة عليه، حيث يقول:

---

(١) مروان بن أبي حفصة: "مصدر سابق"، ص١٠٦- ١٠٨.

(٢) المصدر السابق: ص١٠٩.

هُمُ الْقَوْمُ إِنْ قَالُوا أَصَابُوا وإِنْ دُعُوا ... أَجَابُوا وإِنْ أَعْطَوْا أَطَابُوا وأَجْزَلُوا
وَمَا يَسْتَطِيْعُ الفَاعِلُونَ فِعَالَهُمْ ... وإِنْ أَحْسَنُوا فِي النَّائِبَاتِ وأَجْمَلُوا
تَجَنَّبَ "لا" فِي القَوْلِ حَتَّى كَأَنَّهُ ... حَرَامٌ عَلَيْهِ قَوْلُ "لا" حِيْنَ تَسْأَلُ
تَشَابَهَ يَوْمَاهُ عَلَيْنَا فَأَشْكَلا ... فَلا نَحْنُ نَدْرِي أَيُّ يَوْمَيْهِ أَفْضَلُ
أَيَوْمُ نَدَاهُ الْغَمْرِ أَمْ يَوْمُ بَأْسِهِ ... وَمَا مِنْهُمَا إِلا أَغَرُّ مُحَجَّلُ[1]

ولم يكن هذا التوريط من جانب مروان لممدوحيه مقتصرًا على الأقوال والأشعار فحسب، ولكنه تعدى ذلك إلى الفعل والتعريض عن طريق السلوك المباشر، وهو ما توضحه هذه القصة السابقة التي يرويها العتبي: "لما قدم معن بن زائدة البصرة واجتمع إليه الناس، أتاه مروان بن أبي حفصة فأخذ بعضادتي الباب فأنشده شعره"[2]. فما دلالة هذا الفعل إلا فرض الذات وطلب المال بكل تبجح وتبذل، إنه الاستجداء الواضح للعيان، بل إن هذا الفعل وهذا المنظر انعكاس طبيعي لوجه مروان الحقيقي! / ومن أراد أن يرسم صورة صادقة للرجل فعليه أن يضع في ذهنه الصورة السابقة وحاله فيها وهو يمسك بعضادتي الباب!! / ففيها الغناء عن القول والتصريح، بل إنها أقوى دلالة من كل قول وتقرير.

أليس هذا مروان؟ أولا يعبر هذا بكل وضوح وبدون مواربة عن شخصية الرجل؟ الرجل الذي أحب المال وأبدع في مدائحه من أجله؟ وجعله قسيمًا للمديح في قصائده من أجله؟ وبخل البخل الشديد من أجله؟ أليس في هذا ما يكفي لتصحيح كثير من الرؤى الخاطئة والأحكام الخاطئة عن الرجل وشعره؟؟ إن الذي يدفعه إلى مداومة السؤال والإلحاح في السؤال دفعا مقصودا أحيانا وخفيًا أحيانا أخرى / هو هذه العاطفة العارمة والشهوة الطاغية التي تمثل حجر الأساس في شعره بعامة ومديحه بخاصة / هو حبُّ المال !! / ولو كان مروان محبًا صادقًا أو مخلصًا حقيقيًا لما حَمَّلَ مدائحه كل هذه الإشارات!! وماذا تعني هذه الإشارات؟ غير الإعلان الصريح عن صاحبها وشخصيته؟؟، وكأنه يقول لهؤلاء الممدوحين ويذكرهم دائمًا أبدًا أن المديح سيكون على قدر ما يعطونه من الأموال، هذه

---

(١) نفسه: ص ٨٨، ٨٩.

(٢) ابن عبد ربه: "مصدر سابق"، ١/ ٣٠٢.

هي شخصية مروان بن أبي حفصة من خلال مدائحه وعاطفته لمعن بن زائدة الشيباني. إنها تبدو بعد هذا العرض شخصية بعيدة عن المألوف والمتعارف عن الرجل!! فما شخصيته التي تظهر من خلال العاطفة والشعر في مديح العباسيين؟

(٥)

## شخصية مروان في مدح الخلفاء العباسيين بين العاطفة والشعر

كان الخليفة العباسي المهدي أول الخلفاء العباسيين الذين مدحهم مروان، وتبدأ حكاية اتصال مروان بن أبي حفصة بالمهدي بقصة عجيبة مقتضاها أن المهديّ طرد مروانَ من مجلسه عندما وفد عليه أول مرة ليمدحه فيمن وفد من الشعراء، وقد وردت هذه القصة على هذا النحو:"وحكى الفضل بن الربيع قال رأيت مروان بن أبي حفصة قد دخل على المهدي بعد موت معن بن زائدة في جماعة من الشعراء، فأنشده مديحًا، فقال له: من أنت؟ فقال شاعرك مروان بن أبي حفصة، قال: ألست القائل: فقلنا أين نرحل بعد معن، البيت المذكور وقد جئت تطلب نوالنا وقد ذهب النوال لا شيء لك عندنا جروا برجله. قال فجروا برجله حتى أخرجوه"(١)، لقد بدأت بذكر هذه القصة لأنها تحمل دلالات وإشارات قوية على شخصية الرجل، بل إنها تضاف إلى قصصه المتعددة التي تعكس حقيقة شخصيته، بخاصة أنه يظهر فيها بمظاهر المتسولين الثقلاء، الذين يسحبون ويضربون ومع ذلك لا يرتدعون أو يكفون عن تسولهم وترخصهم، ويبدو هذا الوصف مناسبًا لشخصية مروان؛ فالرجل متسول من الطراز الأول ولكنه متسول من طراز خاص، ينص على رأس أولئك المتسولين الثقلاء لأنه يفعل أفعالهم ويتشبه بسلوكهم. ألم يسحب من رجليه في مجلس المهدي؟! فلماذا عاد وعاود الكرة في الدخول مرة ثانية؟! وهل يحمل هذا الإخراج وبهذه الصورة دلالة ما؟؟. الذي يغلب على الظن أن الخليفة المهدي كان على وعي دقيق بحقيقة شخصية مروان، ورأى أن يبدأ بهذا الموقف معه حتى يلهب مشاعره ويدغدغ قريحته حتى تجود بأروع ما تستطيع بخاصة أن الرغبة تدفعه دفعًا إلى الإتيان بالعجيب والطريف هذا من جانب، ومن الجانب الآخر، فإن المهدي يعلم أن المحرك الأول الذي يسيطر علي هذه الشخصية المروانية يكمن

(١) اليافعي:"مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان"، تحقيق عبد الله الجبوري، مؤسسة الرسالة: بيروت، ١٩٨٤م، مج١/ ٣٣٩.

في المال والرغبة في جمعه، ويرى د.مصطفى الشكعة أن السرَّ في لجوء مروان إلى الشعر السياسي والمذهبي – الذي يدافع فيه عن أحقية العباسيين في الخلافة– يكمن في هدفه المتمكن منه وهو حبُّ المال[1]. والذي يغلب على الظن كذلك أن مروان الشره إلى المال قد فطن إلى مقصد الخليفة المهدي وعرف مراده من هذا التصرف، فلم يلبث أن رجع بقصيدة في العام التالي لكي يرضي الخليفة:".....فلما كان من العام المقبل تلطف [مروان] حتى دخل مع الشعراء فمثل بين يديه [المهدي]، وأنشده قصيدته التي أولها:"طرقتك زائرةٌ فحيّ خيالها"، فأنصت لها المهدي ولم يزل يزحف كلما سمع شيئًا منها حتى زال عن البساط إعجابًا بما سمع، ثم قال كم هي؟ فقال: مئة. فأمر له بمئة ألف درهم ويقال إنها أول مئة ألف أعطيها شاعر في خلافة بني العباس"[2]، نقد صدق حدس المهدي في مروان، وصدقت فراسته فيه، حيث إن مروان قدم للعباسيين السند الشرعي في الخلافة وهو أهم ما يحتاجون إليه للتصدي لخطر أبناء عمومتهم العلويين[*].

يتراءى لي أن هذا المدخل صالح ومفيد للتعرف على حقيقة الشخصية المروانية التي تظهر من العاطفة والشعر، ويتراءى لي كذلك أن هذه الشخصية ليست بجديدة أو غريبة عليَّ، فلقد عرفتها من قبل شرهة تسيطر عليها شهوة حبِّ المال واكتنازه، كما أنها ليست بجديدة على مروان نفسه الذي أغلظ على نفسه من أجل المال. فلقد سعى الرجل وبكل ما أوتي من قوة إلى المال وطلب المال وتنازل عن كرامته وكبريائه– إن كان له ما يعرف بالكبرياء أو الكرامة– من أجل المال، ولم يثأر الرجل لما ناله في مجلس

---

(١) "مرجع سابق": ص ٣٤.

(٢)اليافعي:"مصدر سابق": مج١/ ٣٤٠،٣٤١.

(* ) وكان طبيعيًا أن يفسر أحد الدارسين السبب الذي من أجله طرد المهدي مروان بن أبي حفصة بقوله:"..... ولكن الغاية من طرده هو أنه لم يضمن شعره الدفاع عن أحقية العباسيين بالخلافة فطرده لكي يشعره بما أراد ويريد وهو أن يتجه في شعره اتجاهًا سياسيًا يؤيد حجج العباسيين في عدم مشاركتهم للعلويين في الخلافة، وقد عرف ذلك مروان فكان بعده شاعر الحزب العباسي الأول"

– إسماعيل حمد السماعيل:"مرجع سابق": ص: ٧٠.

المهدي في أول مرة وحقّ له أن يغضب وأن يثور وأن ينتصر لذاته لكنه لم يفعل كذلك من أجل المال!!

فماذا قال مروان في هذه القصيدة لكي ينال كل هذا التكريم والاحتفاء من قبل الخليفة المهدي؟ وما سبب هذا التحول؟ وما المعاني التي قدمها مروان في قصيدته هذه؟ تكمن الإجابة عن هذه التساؤلات فيما أورده ابن عبد ربه عن مروان قال: "وقال مروان بن أبي حفصة: دخلت على المهدي فاستنشدني، فأنشده الشعر الذي أقول فيه:

طَرَقَتْكَ زَائِرَةٌ فَحَيِّ خَيَالَهَا ... بَيْضَاءُ تَخْلِطُ بالحَيَاءِ دَلالَهَا

قَادَتْ فُؤَادَكَ فَاسْتَقَادَ ومِثْلُها ... قَادَ الْقُلُوبَ إلى الصِّبَا فَأَمَالَهَا

حتى انتهيت إلى قولي:

شَهِدَتْ مِنَ الأنْفَالِ آخِرُ آيَةٍ ... بِتُرَاثِهِمْ فَآرَدْتُمُ إبْطَالَهَا

أو تَجْحَدُونَ مَقَالَةً عَنْ رَبِّكُمْ ... جِبْرِيْلُ بَلَّغَهَ النَّبِيَّ فَقَالَهَا

هَلْ تَطْمِسُونَ مِنَ السَّمَاءِ نُجُومَهَا ... بِأَكُفِّكُمْ أَمْ تَسْتُرُونَ هِلالَهَا

قال [مروان] وأنشدته أيضا شعري الذي أقول فيه:

يَا ابْنَ الَّذِي وَرِثَ النَّبِيَّ محمداً ... دُونَ الأقَارِبِ مِنْ ذَوِي الأرْحَامِ

الوَحْيُ بَيْنَ بني البَنَاتِ وَبَيْنَكُمْ ... قَطَعَ الخِصَامَ فَلاتَ حِيْنَ خِصَامِ

مَا لِلنِّسَاءِ مَعَ الرِّجَالِ فَرِيضَةٌ ... نَزَلَتْ بِذَلِكَ سُورَةُ الأنْعَامِ

أنَّى يَكُونُ ولَيْسَ ذَاكَ بِكَائِنٍ ... لِبَنِي البَنَاتِ وِرَاثَةُ الأعْمَامِ

أَلْغَى سِهَامَهُمُ الْكِتَابُ فَحَاوَلُوا ... أنْ يَشْرَعُوا فِيْهَا بِغَيْرِ سِهَامِ

ظَفِرَتْ بَنُو سَاقِي الحَجِيْجِ بِحَقِّهِمْ ... وغُرِرْتُمُ بِتَوَهُّمِ الأحْلامِ

قال مروان فلما أنشدت المهدي الشعرين قال: وجب حقُّكَ على هؤلاء وعنده جماعة من أهل بيته، قد أمرت لك بثلاثين ألفًا وفرضت على موسى خمسة آلاف وعلى هارون مثلها وعلى علي أربعة آلاف وعلى العباس كذا وعلى فلان كذا فحبست سبعين ألفًا. قال [مروان]: فأمر لي بالثلاثين ألفًا فأتي بها، ثم قال اغد على هؤلاء وخذ ما فرضت لك، فأتيت موسى فأمر لي بخمسة آلاف، وأتيت هارون فأمر لي بمثلها وأتيت عليًا قال: قصر بي دون إخوتي فلن أقصر دون بنفسي فأمر لي بخمسة آلاف وأخذت من الباقين سبعين

ألفًا"[1].

لا يكمن السرَّ في هذه الأبيات فيما تحمله من معان مدحيَّة في نظري ولكن السرَّ كل السرِّ يكمن في المعنى السياسي الذي طرقته، والمكسب الدعائي الذي أهداه إلى العباسيين، فلقد قدم لهم مروان ضالة كانت غائبة عنهم، وهدية مبتكرة وجدت القبول والتكريم بخاصة أنها هدية قيمة لا تقدر بثمن عند العباسيين على وجه الخصوص. ولقد مثل مروان اللسان الناطق بل إنه المدافع الأول عن العباسيين والمتهم للعلويين وهي معان حرص عليها العباسيون وحرصوا أكثر على تعميقها عند الرعية والعوام على وجه التحديد، وكان طبيعيًا أن يعطى كل هذه العطايا، لأنه حقق نصرًا سياسيًا وفكريًا ومعنويًا كان العباسيون في أشد الحاجة إليه، هذا النصر الذي يضاف إلى نصرهم العسكري. ويكفي أن هذه الأبيات وقعت كالصاعقة على العلويين وأشياعهم، بل وأفقدتهم كثيرًا من التعاطف الذي كان يقابلون به من الرعية والعوام.

وعلى ذلك لم يلتفت المهدي إلى صدق مروان أو كذبه ولا داعي للصدق في مثل هذه الأمور وطالما أن مروان قد قدم شعرًا في صالح الحكم العباسي؛ هذا ما نظر إليه المهدي وأولاه اهتمامه، فلئن كان مروان كاذبًا فلسوف يقتنع بأبياته وأشعاره الكثيرون من العامة. ولئن كان مروان كاذبًا فلسوف يتبنى هذه الرؤية آخرون صادقون في توجههم وحبهم للعباسيين، ويكفي أن مروان قد فتح الطريق ومهده أمامهم، وإذا كان المهدي في حاجة إلى المديح العادي فإن حاجته أكثر على مديح من اللون الذي قدمه مروان.

فما الذي دفع مروان إلى هذا المعنى المبتكر الجديد؟ أتراه الإخلاص للعباسيين!! لم يكن مروان مخلصًا أو محبًا لهم. ومع ذلك فإذا كان مروان كاذبًا في حبه وإخلاصه وعاطفته تجاه العباسيين فإنه كان صادقًا ومخلصًا لعاطفته التي صدر عنها!! ولا يضير مروان الكذب أو الادعاء على ممدوحيه طالما أنه أخلص لعاطفته الخاصة وانطلق عن معاناته الخاصة التي ألمت به وسيطرت عليه، فهذه العاطفة هي التي دعته إلى الابتكار في المديح والتجديد فيه ليس من أجل الممدوح بل من أجل العاطفة التي تحركه، وهكذا كانت هذه العاطفةُ المحركَ والدافعَ الذي أطلق له العنان لكي يتصرف وبكل حرية من

---

(١)ابن عبد ربه:"مصدر سابق"،١ / ٣١٠– ٣١٢، والقصيدة كاملة في شعره ص٩٦–١٠٤.

أجل إرضائها وأباح له كل شيء محظور في سبيل تمثلها.

وتجدر الإشارة إلى أن قصائد مروان في العباسيين تتفوق في نظري على قصائده في مدح معن ابن زائدة وغيره، كما أن مدائح مروان للمهدي لا تقارنها مدائح أخرى؛ فهي من غرر قصائد المديح في الأدب العربي؛ وليس هذا من قبيل الحكم على هذه القصائد بالمعنى الدقيق ولكن هذا معناه أن العباسيين أرادوا الانفراد بمروان بن أبي حفصة بل إن الأهم من ذلك أنهم استكثروا مدائحه في معن / والأصح أنهم طلبوا لونًا معينًا وخاصًا من المديح السياسي والحزبي والمذهبي / وعلى ذلك فهم يرغبون في احتكار الرجل واحتكار مدائحه لهم وحدهم، وهذا نراه في تكرار معاتبتهم أو بالأحرى معاقبتهم لمروان بسبب مدائحه لمعن بن زائدة الشيباني؛ إنه التعنيف المقصود الذي يحمل تكليفًا معناه يعرفه مروان وهو ضرورة تقديم مدائح متألقة / مدائح من طراز خاص يحتاج إليها العباسيون / تتفوق على هذا المديح السالف. ومع ذلك فهم لا يواجهونه بهذا التجهم لأنه أخلص للرجل؛ فهم يعرفون أن الإخلاص الأوحد له يرتبط ويتوقف على الأموال.

ويبدو أن أشعار مروان ومواقفه تعطي أدلة أخرى وشواهد تؤكد هذه النتيجة بالإضافة إلى هذا التفسير، ويمكن أن نقرأ هذه المواقف والأشعار لنرى على أي شيء تنطوي؟!:

الأول: تبدى لي من خلال المصادر المختلفة أن مروان بن أبي حفصة عندما يخبر بقصة عن نفسه أو شعره فإنه لا ينسى أن يذكر العطايا التي أخذها بل ويضمنها ما أخذه بكل دقة، وهذا إن دل فإنما يدل في نظري على حرص الرجل على أن يذكر ما يحب؛ إذ لولا هذا الحرص لما ذكر القيم الدقيقة لما أخذه أو لما تذكرها في الأساس؛ ولكن كيف ينسى مروان؟ إنه يتذكرها وبكل دقة لأنها ترتبط به ويصدر عنها / ولو أن هذه الأموال لا تمثل شيئا بالنسبة له لنسي على الأقل قيمة ما أُعْطِيَ وكما قالوا: فإن زلات اللسان تفصح وبأمانة عما يعتمل في القلوب من الحب أو الكره؛ وهي مع مروان أكثر إفصاحًا وأقوى دلالة، ويكفي أن نتأمل القصة السالفة التي يتحدث فيها مروان عن هذه العطايا وما أخذه من هذا ومن ذاك وهو يذكر قيمة ما أخذه بدقة متناهية لنرى أنها خير دليل على ما تنطوي عليه داخيلة الرجل؛ ولنرى كذلك أنها خير دليل على حبِّه الحقيقي. ويبدو أن الرجل أمين مع نفسه وصادق معها كل الصدق لأنه لا يفعل إلا ما يرضيها ويروي نهمها ويشبع شهوتها. وتأتي أشعاره وأفعاله تعبيرًا أصيلا عما يعتمل ويدور في خلجاته

الداخلية، كما أنها تعبير أصيل عما تطلبه عاطفته، فبها يتوجه وعلى أساسها يتصرف ومن خلالها يرى، وهو لا يرى ولا يصدر و لا يتصرف إلا بإرادتها، بل إنه يصدر عنها صدورًا أعمى، إنه الإخلاص العجيب والحب الحقيقي للمال، هذا هو مروان مع المهدي وها هي شخصيته لمن أرادها.

الثاني: أشعار مروان في مديح المهدي مليئة بالإشارات التي تركز على المال والعطاء، وهذا أيضا انعكاس تلقائي لشخصية الرجل التي لا تستطيع أن تهمل أو تنسى ما تحب. ولنتأمل على هذا قوله:

بِسَبْعِيْنَ أَلْفًا راشَنِي مِنْ حِبَائِه وما نَالَهَا في النَّاس مِنْ شَاعرٍ قبلي[1]

لنرى هذه السعادة الغامرة التي تسيطر على مروان، إنه يفخر بالأموال التي طارت بعقله وحققت أمله.ولنتأمل قوله أيضا:

رَقَعَ الْخَلِيْفَةُ نَاظِرَيَّ وراشَنِي بِيَدٍ مُبَارَكَةٍ شَكَرْتُ نَوَالَهَا
وحُسِدْتُ حَتَّى قِيْلَ أَصْبَحَ بَاغِيًا في الْمَشْيِ مُتْرَفَ شِيْمَةٍ مُخْتَالَهَا[2]

وقوله كذلك:

إِذَا هُنَّ أَلْقَيْنَ الرِّحَالَ بِبَابِهِ حَطَطْنَ بِهِ ثِقْلاً وأَدْرَكْنَ مَغْنَمَا[3]

ولنتأمل قوله في الأخير:

إِلَيْكَ قَصَرْنَا النَّصْفَ مِنْ صَلَوَاتِنَا مَسِيْرَةَ شَهْرٍ بَعْدَ شَهْرٍ نُوَاصِلُهْ
فَلا نَحْنُ نَخْشَى أَنْ يَخِيْبَ رَجَاؤُنَا إِلَيْكَ ولَكِنْ أَهْنَأُ الْخَيْرِ عَاجِلُهْ[4]

ليس عجيبًا إذاً أن يجعل هذه الإشارات إلى المال والعطاء قسيمة للمديح، وأن يجعلها تتخلل أشعار المديح. فالطبيعي عند واحد كمروان هو هذا الفعل، لأنه يتلذذ تلذذًا وهو يتحدث عن المال، ولاسيما أن غرامه في هذه الحياة يرتبط به ويتوحد معه في توأمية ظاهرة.

---

(١)مروان بن أبي حفصة: "مصدر سابق"، ص٩٣.
(٢)المصدر السابق: ٩٩.
(٣)نفسه: ١٠٢.
(٤)نفسه: ٩٤.

الثالث: عدم ثبات مروان على حال في مواقفه وهو ما يفسره موقفه من العلويين، فيروى: "قال الرياشي سمعت محمد بن عبد الحميد يقول: قلت لابن أبي حفصة: ما أغراك ببني عليٍّ؟ قال: ما أحدٌ أحبّ إليَّ منهم ولكن لا أجد شيئًا أنفع للقوم منه"[1]. ومن المعروف أن حبًا كهذا ليس بحب وإنما هو تزلف وكذب، خاصة من مروان الذي انسحب من ولائه الظاهر لبني أمية وأقول الظاهر لأن ولاء الرجل الباطن والظاهر جميعا منصرف إلى المال!! وكان طبيعيًا أن نرى: "إن مروان كان يتمثل المال دائمًا"[2] ونرى: " ولقد كان مروان على جانب كبير من الذكاء في اقتناص المنح والعطايا"[3]. وهذا قاده إلى: "كما أن مروان في تحامله على العلويين ومنافحته عن العباسيين كان مرائيا منافقًا فلم يكن وراءه حقدٌ أو حسدٌ على العلويين وإنما كان يريد المال ولا مال إلا من هذا الطريق"[4]. وذلك لأن الرجل: "....كاذب في حبه للعلويين ولكنه يؤكد أن تحامله عليهم ليس صادرا عن حب للعباسيين ولو كانوا أحب الناس إليه لما تعرض لهم بسوء مهما كلف الأمر"[5]. إن الطبع عند مروان يغلب التطبع، والطبع قائم على حب المال، وطبيعي أن يقوده هذا الحب إلى الحماس والاندفاع فيما أخلص له.

فلم يحب مروان بني عليٍّ أو غير بني عليٍّ، ولكنه تمازج واتحد إلى حد الفناء بلغة الصوفية في المال / فهو عشقه وهو غرامه الذي يتميز فيه بالشراهة، بل إنه شهوته التي انقاد لها / والأجدر بمروان ابن أبي حفصة أن يقول: إنه لم يجد طريقًا يحقق به شهوة جمع المال إلا هذا الطريق، بعد أن توقفت أمواله وعطاياه من معن، وهكذا كانت شهوة حبِّ المال سجية جبل عليها مروان وخصلة فطرية انطلق منها في مديحه للمهدي وهو ما يقدم شخصية ثابتة للرجل في المرة الثالثة، وأقول إنه مهما غير الرجل في نمط مديحه، فإن هذا التغيير لم ولن ينصرف إلى شخصيته، فشخصيته ثابتة / محبة للمال شرهة في جمعه / على الرغم من أنه يأخذ لكل حال حالها وما يناسبها بلغة بديع

---

(١)ابن عبد ربه: "مصدر سابق"، ٥ / ٣٦٨، [وصاحب هذه المقولة هو الرياشي عن محمد بن عبد الحميد].

(٢)د.مصطفى الشكعة: "مرجع سابق"، ص٣٢.

(٣)المرجع السابق: ص٣٤.

(٤)إسماعيل حمد السماعيل: "مرجع سابق"، ص٧١.

(٥)المرجع السابق: ص٧٢.

الزمان في مقاماته؛ فالتلون والتبدل إنما هو في الوسائل والأدوات التي تحقق الهدف / المال، لا في الجوهر / الشخصية.

هذه هي شخصية مروان بن أبي حفصة في مديح المهدي بين العاطفة والشعر؛ جاءت منسجمة مع ما تمليه عليه عاطفته ولأن العاطفة ثابتة ومستقرة فلقد ترتبت عليها شخصية من جنسها ثابتة ومستقرة أيضًا. فهل ستعطينا أشعاره الأخرى في المديح نتيجة جديدة مغايرة أو شخصية مخالفة لما عهدناه عند الرجل؟؟.

لم يكن الخليفة المهدي الوحيد الذي مدحه مروان من الخلفاء العباسيين أو رجالات الدولة العباسية، ولكنه مدح الكثيرين غيره (*). فماذا تحمل هذه المدائح؟ وعلى أي شخصية تنطوي؟ وهل تنطوي هذه القصائد المدحية على إشارات قوية على شخصية الرجل؟ أم أن هذه الإشارات إلى هذه الشخصية قد توقفت بعد أشعاره في المهدي والتي أعلن فيها الانتصار للعباسيين والذود عن أحقيتهم في الخلافة؟؟. وتطالعنا في هذا السياق أشعار مروان في مدح الخليفة الهادي. ولكن لكي نتبين حقيقة شخصية مروان معه لا بد أن نعرف أن الهادي لم يطرده من مجلسه كما فعل سلفه المهدي وخلفه الرشيد. ومن الطبيعي أن يخلص مروان في عاطفته تجاه الهادي الذي لم يُهِنْهُ ولم ينل من كرامته؛ ومن الطبيعي أن يكف عن عادته في توريط الممدوحين. ولكن ماذا فعل؟ لقد مدح مروان الهادي العباسي ولكن أخباره معه قليلة؛ لأن الهادي مات قبل أن تكثر هذه الأخبار؛ ومع ذلك فلقد كانت العلاقة قوية بين مروان والهادي. والدليل على ذلك قوله في مدحه:

إِنْ خُلِّدَتْ بَعْدَ الإِمَامِ مُحَمَّدٍ نَفْسِي لَمَا فَرِحَتْ بِطُولِ بَقَائِهَا[1]

وقوله: تَشَابَهَ يَوْمَا بَأْسِهِ ونَوَالِهِ فَلا أَحَدٌ يَدْرِي لأَيِّهِمَا الفَضْلُ

شَبِيْهُ أَبِيْهِ مَنْظَرًا وخَلِيْقَةً كَمَا حُذِيَتْ يَوْمًا عَلَى أُخْتِهَا النَّعْلُ[2]

---

(*) لم ألتزم الترتيب الزمني أو التاريخي في ذكر أشعار مروان المدحية التي قالها في هذه الشخصيات، لأن الشخصية لا ترتبط بزمن أو تاريخ، بالإضافة إلى أن الشخصية عند الشاعر سمة وعلامة مميزة على كل نتاجه الشعري باختلاف الزمن الذي قيل فيه ومن هنا فالترتيب الزمني في تصوري لا قيمة له في هذه القضية.

(١) مروان بن أبي حفصة: "مصدر سابق"، ص ١٥.

(٢) المصدر السابق: ص ٨٥. مع أنني أرى أن التشبيه في البيت الثاني غير لائق وغير مناسب لهذا السياق.

ولقد أعجب الهادي بالبيت الأول فأسرع إلى إثابة مروان، جاء في الأغاني: "دخل مروان بن أبي حفصة على موسى الهادي، فأنشده قوله فيه:

تَشَابَهَ يَوْمَا بَأسِهِ ونَوَالِهِ فَلا أحَدٌ يَدْرِي لأيِّهِمَا الفَضْلُ

فقال له الهادي: أيما أحبُّ إليك؟ أثلاثون معجلة أم مائة ألف تدون في الدواوين؟ فقال له: يا أمير المؤمنين أنت تحسن ما هو خير من ذلك ولكنك نسيته، أفتأذن لي أن أذكرك به؟ قال: نعم. قال تعجل لي الثلاثين ألفًا وتدون المائة الألف في الدواوين. فضحك وقال: بل يعجلان جميعا فحمل إليه المال أجمع"[1]. ويعلق أحد الدارسين على هذا الخبر بقوله: "وفي هذا الخبر يتجلى لنا طمع مروان وجشعه وتهافته على المال"[2]. ويزداد هذا التهافت وضوحًا في هذا الاستجداء وهذا الترخص والتزلف الذي يتبدى من قوله:

بِسَبْعِيْنَ أَلْفًا شَدَّ ظَهْرِيَ وَرَاشَنِي أَبُوكَ وَقَدْ عَايَنْتَ مِنْ ذَاكَ مَشْهَدَا

وإِنِّيَ أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ لَوَاثِقٌ بِأَنْ لا يُرَى شُرْبِي لَدَيْكَ مُصَرَّدَا [3]

فهل يوجد أكثر من هذا التزلف، إن مروان يشترط على الهادي العطية التي يريدها، فالرجل فظ في نهمه وتهالكه على المال. وهو شره في جمعه، إنه يمدح العطاء ويشترط العطاء وتتطرق أبياته إلى العطاء. وفي الحقيقة لا أجد أكثر من هذين البيتين دلالة على مروان إنه فرض الذات والسعي بالقوة نحو تحصيل المال؛ فهو عينه الابتزاز الواضح والتعريض الفاضح / إنه باختصار شخصية مروان التي انقادت انقيادًا أعمى وراء المال ولهثت لهثًا لا هوادة فيه من أجله. وإني لا أخفي عجبي من صراحة الرجل مع نفسه، فكأنَّ الرجل يقول أو هو يقول بالفعل: إذا أردت أيها الخليفة مدحي وثنائي فعليك أن تقدم العطاء / العطاء اللائق، ولاسيما أنك عاينت من قبل العطايا التي كالها لي والدك المهدي، وإنني إذ أعلن هذا اشترط عليك العطاء أولا والعطاء قبل المدح والثناء. ولحسن الحظ لنا ولسوئه مع مروان فإن الأبيات تفضح الرجل وتعريه تعرية تامة، بل وتقدمه شخصية واضحة المعالم إلى أبعد الحدود. إنه رجل مادي بكل المقاييس ومع ذلك فلقد كان عبقريًا في تحقيق الرِّوَاءِ لهذا النهم وكان عبقريًا أكثر في هذا الامتثال والتمثل لما

---

(١)أبو الفرج الأصفهاني: "مصدر سابق"، ١٠ / ٨٠.

(٢)إسماعيل حمد السماعيل: "مرجع سابق"، ص٨٢.

(٣)مروان بن أبي حفصة: "مصدر سابق"، ص٣٠.

تمليه عليه عاطفته؛ فالرجل لم يخالف هذه العاطفة قيد أنملة وإنما جاءت شخصيته وشعره تعبيرًا نقيًا وخالصًا عن هذه العاطفة. وطالما أن الرجل قد صدر عن عاطفته الخاصة وتمثلها فلا يعيبه هذا التوظيف الشعري لما يملك؛ ولا توجد أدنى غضاضة عليه وهو يخادع أو ينافق أو يكذب على هؤلاء طالما أن المحرك نابع من أعماق نفسه، وكل شيء في هذه الحالة مباح له الكذب أو النفاق أو عدم الصدق والإخلاص في المدح والثناء أو عدم الاكتراث بما ينال من كرامته وكبريائه، فكل هذه الأشياء مباحة طالما أنها في هامش الشعور- إن جاز التعبير - بالنسبة له.

وليس على مروان أدنى غضاضة كذلك في أن ينصرف إلى المال وينشغل بجمعه ولاسيما أنه يعاين حالة من عدم الأمان تسيطر على الأجواء من حوله، ويبدو أن مجيء مروان في الفترة الانتقالية بين الدولة الأموية والعباسية قد عمق عنده الرغبة في جمع المال؛ وعمق عنده كذلك الرغبة في تحقيق طموحاته الشخصية، فالمال هو الذي يبقى له طالما أن الأشياء الأخرى غير مؤكدة الدوام أو البقاء. وليس على مروان أدنى غضاضة في أن يتشبث بالمال هذا التشبث لأن كل الظروف التي يحياها تدفعه إلى التركيز على هدفه الشخصي وعدم الاكتراث بما لا يعنيه حتى يضمن لنفسه السلامة من الفتن الكثيرة التي نالت الكثيرين من حوله؛ فهذه الأحوال أعني الأهوال التي عاينها مروان في هذه الفترة الانتقالية هي في نظري من بين العوامل القوية التي دفعت مروان إلى السعي إلى المال بكل سبيل حتى يضمن لنفسه حياة آمنة؛ وهي كذلك التي حركت هذه العاطفة ودفعتها دفعًا عميقًا لتصل إلى هذا الحد من الشراهة والإقبال على المال. ولذا لا ينبغي أن نظلم الرجل ونتجنى عليه ونرجع السبب في حبه للمال إلى عاطفته فحسب، ولكن يجب أن نضع في الحسبان ونحن نرصد شخصية مروان أثر التقلبات والأجواء التي صاحبت الفترة الانتقالية في بناء شخصيته؛ فلقد كانت هذه الأجواء والتقلبات والأهوال العامل الأقوى الذي يضاف إلى عاطفته في إقامة هذه الشخصية ودفعها لتنحو هذا النحو. هذه شخصية مروان وهذه عاطفة التي دفعتها الظروف المحيطة إلى تعميق حبها للمال والانقياد له والارتباط به؛ خاصة وأن الارتباط بأي شيء في هذه الظروف يمكن أن يقود الرجل إلى المجهول، ولذا ارتبط بالمال في توأمية عجيبة طالما أن هذا الارتباط لا يعود عليه بالضرر؛ بل يحقق له منفعة من جوانب كثيرة أهمها على الإطلاق رواء نهمه

وعطشه في حب المال والاستجابة لعاطفته التي تدفعه إلي الزيادة منه. هذه هو الرجل وهذه هي شخصيته وهذه هي الظروف المساعدة والقوية التي شكلت شخصية مروان وجعلتها تظهر بهذا المظهر.

بعد أن عرفنا حقيقة شخصية مروان مع الخليفة الهادي يحسن أن نتعرف على شخصيته كذلك من خلال أشعاره في مدح الخليفة هارون الرشيد، ويحسن بنا أن نترك أشعاره في مدح الرجل لتخبرنا هي بذاتها عن حقيقة هذه الشخصية، فهي أبلغ من كل تعليق، وأغنى من كل دلالة، يقول مروان في مدح الرشيد:

يَسُوقُ يَدَيْهِ مِنْ قُرَيْشٍ كِرَامُهَا ... وَكِلْتَاهُمَا بَحْرٌ عَلَى النَّاسِ زَاخِرُ

إِذَا فَقَدَ النَّاسُ الغَمَامَ تَتَابَعَتْ ... عَلَيْهِمْ بِكَفَّيْكَ الغُيُومُ المَوَاطِرُ[1]

ويقول في نفس القصيدة:

عَلَيَّ بَنِي سَاقِي الحَجِيجِ تَتَابَعَتْ ... أَوَائِلُ مِنْ مَعْرُوفِكُمْ وَأَوَاخِرُ

فَأَصْبَحْتُ قَدْ أَيْقَنْتُ أَنْ لَسْتُ بَالِغًا ... مَدَى شُكْرِ نُعْمَاكُمْ وَإِنِّي لَشَاكِرُ[2]

إن الأبيات تحمل نفس الإشارات والتلميحات الصريحة السابقة إلى العطاء، بما يقدم مروان في صورته التي رأيناه بها / حريص على التذكير بالعطاء / شره في طلب المال / عاشق للمال يقبل من أجله ما لا يقبله لغيره / التلون بما يتلاءم مع رغبته الطاغية في الحصول على المال وإدراكه / التفنن والذكاء والتحفز لما يحقق له شهوته العارمة / اقتناص الفرص واستغلال المواقف التي تخدم هذه الغاية. ويكفي أن نسوق على ذلك كذلك قصة طرده من مجلس الرشيد حتى تكتمل الرؤية عن شخصية مروان في مدح الرشيد بين العاطفة والشعر / لنري إلى أي حدٍّ يستجيب مروان لهذه العاطفة! إن الرجل يلهج ويلهث من أجلها؛ ولنرى كيف أن الرجل يكرر نفس ما فعله أيام المهدي، وذلك لأنه سرعان ما يرجع إلى الرشيد مادحًا ويعاود الكرة في منهجه الذي أملته عليه عاطفته، والتي تعد هذه الأشعار والأفعال ترجمة أمينة ودقيقة لها / إنها العاطفة التي أسرت الرجل وقيدته في شباكها فسلم نفسه وشعره وتصرفاته لها. ولذا كان طبيعيًا أن نرى هذا السلوك من الرجل في هذه القصة: "..... قال الفضل بن الربيع: فلم يلبث إلا أيامًا إلى

---

(١)مروان بن أبي حفصة: "مصدر سابق"، ص ٥٣.

(٢) المصدر السابق: ٥٤.

أن أفضت الخلافة إلى هارون الرشيد، فأنشده شعرًا، فقال له: من أنت؟ فقال شاعرك مروان بن أبي حفصة، فقال: ألست القائل كذا؟ فأنشده البيت-[وقلنا أين نرحل بعد معن وقد ذهب النوال فلا نوالا]- ثم قال: خذوا بيده فأخرجوه، فإنه لا شيء له عندنا، ثم تلطف فدخل بعد ذلك فأنشده فأحسن جائزته"[1].

إن هذا الاتفاق في سلوك مروان وتصرفاته ليحمل دلالة على وحدة العاطفة ووحدة الشخصية التي يصدر عنها ؛ ولو كان الرجل مخلصًا أو محبًا لتغيرت ردود أفعاله تجاه هذه المواقف؛ وبناءً على ذلك فطالما أن العاطفة واحدة فآثارها الشعرية متشابهة وواحدة كذلك ؛ ولذلك كان طبيعيًا أن نرى تكرر هذه المواقف منه وتشابهها في آن معًا؛ وكان طبيعيًا أن تتفاعل هذه الظروف وتتمازج هذه البيئة مع هذه العاطفة المواتية التي تملك استعدادًا فطريًا لا مكتسبًا - نابعًا من شهوته وشراهته نحو المال- في تكوين شخصية الرجل. فعاطفة الرجل إذًا مهيأة ومستعدة وقابلة للاستجابة القوية لهذه الظروف، والنتيجة الطبيعية لذلك هي أن ينقاد مروان انقيادًا أعمى لعاطفته التي وجدت في الظروف المحيطة عوامل قوية ومساعدة لما جبلت عليه؛ إذ كانت هذه العاطفة على موعد وعلى قدر مع هذه الظروف فتماهت معها واستجابت لها في تناغم وتناسق كبير ووجدت فيها المعين المناسب لكي تتفجر هذه العاطفة في تلقائية ولكي تفصح عن نفسها بقوة وعفوية وبكل الوسائل الممكنة والمتاحة؛ حتى إن مروان لم يضع ضوابط أو حدودًا لهذه الاستجابة؛ وكان طبيعيًا أن يتصرف مع يزيد بن مزيد الشيباني على هذا النحو، ويتلون بهذه الصورة الموغلة في التدني من أجل المال؛ وقد أورد ابن عبد ربه هذا الموقف بقوله: "وقال مروان بن أبي حفصة: لقيت يزيد بن مزيد الشيباني وهو خارج من عند المهدي، فأخذت بعنان دابته وقلت له: إني قلت فيك ثلاثة أبيات أريد لكل بيت منها مائة ألف. قال هات. لله أبوك! فأنشأت أقول:

يَا أَكْرَمَ النَّاسِ مِنْ عُجْمٍ وَمِنْ عَرَبٍ ... بَعْدَ الْخَلِيفَةِ يَا ضِرْغَامَةَ العَرَبِ

أَفْنَيْتَ مَالَكَ تُعْطِيهِ وَتُنْهِبُهُ ... يَا آفَةَ الفِضَّةِ البَيْضَاءِ والذَّهَبِ

إِنَّ السِّنَانَ وحَدَّ السَّيْفِ لَوْ نَطَقَا ... لأَخْبَرَا عَنْكَ فِي الْهَيْجَاءِ بِالْعَجَبِ"[2]

---

(١) اليافعي: "مصدر سابق"، مج١ / ٣٤١.

(٢) ابن عبد ربه الأندلسي: "مصدر سابق"، ١ / ٢٥٣، ٢٥٤. - ومروان بن أبي حفصة: "مصدر سابق"، ص٢٢.

ألا يدل موقفه مع يزيد هذا دلالة حقيقية وقوية على النوازع والدوافع التي تحرك الرجل. والذي يغلب على الظن أن مروان قد أعد هذه الأبيات مسبقًا وتفكر في أمرها وكان يتحين فرصة لإلقائها على من يعطيه عليها! بدليل أنه لم ينص على اسم الممدوح وإنما تركه بلا تخصيص حتى تحقق هدفه من ورائها؛ كما أنه تركها بدون تعيين أو تخصيص حتى تلوح له فرصة مواتية لإذاعتها على من يعطيه. وفي الأخير فإن مروان لم يترك الحرية للممدوح في التصرف بحيث يعطيه إن أعجبته الأبيات أو لا يعطيه إن لم ترقْ له؛ وإنما اشترط العطاء أولا وحدد قيمة العطية ثانيا؛ إنه الإذعان للمال والانصياع له بلا شرط أو قيد.

ويكفي أن هذا الموقف يقدم صورة مروان وهو يأخذ بعنان الدابة وصورته وهو يشترط على الممدوح يزيد بن مزيد قيمة العطية؛ وكلها صور محملة بالدلالات القوية التي تشير إلى هذه الشخصية. ولا يخفى في نهاية المطاف ما تحمله الأبيات نفسها من صورة ذات دلالة فاضحة على هذا المقصد، ولا يخفى كذلك وهو الأهم أن يزيد ابن مزيد كان يقف على العاطفة الداخلية التي تحرك الرجل؛ بل ويقف على تفاصيلها ولهذا جاءت استجابته الفورية لرغبة مروان. إنه الترخص والسقوط الذي لا يحافظ على صاحبه ولا يحفظ له ماء الوجه. إنه التذلل من أجل المال؛ إنه مروان بن أبي حفصة في تزلفه للممدوحين وطلبه للعطاء بكل سفور.وكأن الرجل على موعد مع قول القائل: إذا لم تستح فاصنع ما شئت. فالرجل لا يستحي ولا يتورع ولا يرعوي لكرامته طالما أن الأمر مرتبط بالمال. ولقد وصل مروان في هذا النهج من الإلحاح والترخص إلى القمة في التمادي والتصريح بالمال وطلبه / ووصل إلى القمة كذلك في توريط الممدوح من أجله / ويتجلى هذا مع الفضل بن يحيى البرمكي، يقول مروان في مدح الفضل وتذكيره سالكًا نفس الطريق الذي اعتاده مع ممدوحيه:

إنَّ الجَوَادَ ابْنَ يَحْيَى الفَضْلَ لا وَرِقٌ ... يَبْقَى عَلَى جُودِ كَفَّيْهِ ولا ذَهَبُ

مَا مَرَّ يَوْمٌ لَهُ مُذْ شَدَّ مِئْزَرَهُ ... إلا تَمَوَّلَ أَقْوَامٌ بِمَا يَهَبُ

كَمْ غَايَةٍ في النَّدَى والبَأْسِ أَحْرَزَهَا ... لِلطَّالِبِيْنَ مَدَاهَا دُونَهَا تَعَبُ

يُعْطِي اللُّهَا حِيْنَ لا يُعْطِي الجَوَادُ ولا ... يَنْبُو إذَا سُلَّتِ الهِنْدِيَّةُ القُضُبُ

قَدْ فَاضَ عُرْفُكَ حَتَّى ما يُعَادِلُهُ غَيْثٌ مُغِيْثٌ ولا بَحْرٌ لَهُ حَدَبُ[1]

لا تحمل الأبيات مدحًا في نظري إلا هذه الإشارات المتكررة إلى العطاء؛ وتعد تسولا صريحًا يفعله مروان عيانًا جهارًا نهارًا بين يدي ممدوحه الفضل البرمكي، والأبيات بما تحمله من معانٍ تعبير صادق كل الصدق عن الاستجداء والطلب والإلحاح في الطلب. تلك هي شخصية مروان؛ شخصية واضحة المعالم، شخصية مرتبطة بعاطفة صاحبها وخارجة عنها وصادرة عن رغبتها؛ بل إنها شخصية ملتزمة أمام نفسها بتحقيق هذه الرغبة، مهما كلفه ذلك من متاعب ومهما حمَّله ذلك ما يطيق وما لا يطيق؛ نراه يقول في سبيل إرضاء هذه العاطفة متظاهرًا بالمدح:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الجُودَ مِنْ لَدُنْ آدَمٍ تَحَدَّرَ حَتَّى صَارَ فِي رَاحَةِ الفَضْلِ

إِذَا مَا أَبُو العَبَّاسِ رَاحَتْ سَمَاؤُهُ فَيَا لَكَ مِنْ هَطْلٍ ويَا لَكَ مِنْ وَبْلِ[2]

يستمر الرجل في مواصلة ما دأب عليه في سيرته الشعرية؛ من حرص على تحقيق أعلى المكاسب المادية؛ فلقد حقق مروان مكاسب مادية أعلى من أي شاعر عباسي آخر. ولم لا يحقق الرجل هذه المكاسب وقد خاض طريقًا طويلا وصبر على ما واجهه من الذل والهوان والمسكنة والصَّغَار من أجل هذه المكاسب[*]. كما أنه عرف ما هو أفضل من جمع المال. فلقد عرف كيف يحافظ على المال وينميه؛ ولم تكن هذه المحافظة عن طريق التجارة أو أوجه التكسب المعهودة، ولكن كان ذلك من خلال التقتير على الذات والشح على النفس وعلى الغير على حد سواء[*]. ولم يكن هذا

---

(١)مروان بن أبي حفصة:"مصدر سابق"، ص ١٨، ١٩.

(٢)المصدر السابق: ص٩٢.

(*) ويكفي أن نتأمل صورة الرجل وهو يقف على باب معن بن زائدة الشيباني ممسكًا بخشبتي الباب، وصورته وهو يمسك بعنان دابة يزيد بن مزيد الشيباني لنعرف كيف استطاع مروان أن يصل إلى المال وهي صور أبلغ من أي كلام و أقوى من أي دلالة. ويكفي أن نسترجع قصته مع الضيف الذي ألمَّ بمنزله باليمامة فتركه وانصرف.

(*)ويكفي أن نتأمل أيضًا موقفه مع أبي الشمقمق بعد أن مدحه فلم يعطه شيئا؛ ولم يقتصر على عدم العطاء ولكنه عنفه تعنيفًا مرًا. وتروى هذه القصة على هذا النحو:"مدح أبو الشمقمق مروان بن أبي حفصة فقال له: أبا الشمقمق[على سبيل السخرية والتعنيف] أنا شاعر وأنت شاعر وغايتنا السؤال. وذكّر أعرابيٌّ رجلا بالسّؤال فقال: إنه أسأل من ذي عصوين. وقال حبيب:

لم يَخْلُقِ الرَّحمنُ أحمَقَ لِحيَةً مِنْ سَائِلٍ يَرْجُو الغِنَى مِنْ سَائِلِ"

السلوك جديدًا أو عجيبًا بل إنه سلوك أصيل عند مروان ارتبط به وأحبه، فهو بضاعته الوحيدة التي يملكها والتي يتفنن فيها. وليس أدل على هذا من تظرفه مع صيرفي جعفر البرمكي الذي دفع إليه بهبة أعطاها إياه جعفر المتوكل حيث يقول:

ثلاثــونَ ألفًــا كلُّهَــا طَبَرِيَّــةٌ ... دَعَا لي بها لَمَّا رأى الصَّكَ صَالحُ

دَعَــا بــالزُّيُوفِ النَّاقِــصَاتِ وإنَّمَــا ... عَطَاءُ أبِي الفَضْلِ الجِيَادُ الرَّوَاجحُ

فَقُلْــتُ لَــهُ لمَّــا دَعَــا بِزيُوفِــهِ ... أألْجِدُّ هَذَا مِنكَ أمْ أنْتَ مَازِحُ؟(١)

فهل تحمل هذه الأبيات الثلاثة مديحًا؟؟، أم ماذا تحمل غير التعبير عن شخصية الرجل المحبة للمال الطامعة في العطاء بلا حدود؟؟ ولننظر ونتأمل البيت الثالث لنرى على أي شيء نحصل وبأي شيء نخرج بغير هذه الشخصية المروانية المفرطة الحضور!!. ولا تحمل الأبيات في نظري أي حضور للمديح الحقيقي ولكن كل ما فيها من مديح يتمثل في مديح العطاء والنوال لا غير، إنه التوريط المباشر القوي للممدوح وهو نفسه ما نجده في قوله أيضا:

إلَــى وَاسِــعٍ لِلْمُجْتَــدِينَ فِنَــاؤُهُ ... تَــرُوحُ عَطَايَــاهُ عَلَــيْهِمْ وتُبْكِــرُ

أبَــرَّ فَمَــا يَرْجُــو جَــوَادٌ لَحَاقَــهُ ... أبُو الفَضْلِ سَبَّاقُ اللَّهَامِيمِ جَعْفَرُ(٢)

ويحسن عرض أبياته التي قالها وهو يسلك هذا الاتجاه نفسه في مدح السري بن عبد الله. وذلك حتى تكتمل الرؤية في النظر إلى شخصيته وصورتها، نراه يقول عازفًا على نفس الوتر:

أصَابَ الرَّدَى قَوْمًا تَمَنَّوْا لَكَ الرَّدَى ... لأنَّكَ أعْطَيْتَ الجَزِيلَ وَصَرَّدُوا

سَـيَذْهَبُ مَا ضُمَّتْ عَلَيْهِ أكُفُّهُمُ ... ويَبْقَى لَهُمْ فِي النَّاسِ ذَمٌّ مُخَلَّدُ

وتَبْقَــى أيَادِيــكَ الكَرِيمَــةُ بَعْــدَمَا ... يُوَارِيكَ والجُودَ الصَّفِيْحُ المُنَضَّدُ(٣)

فمروان يأبى على نفسه إلا أن يمدح معاني العطاء والإثابة والنوال، نراه في الأخير يسبح في نفس التيار وهو يمدح / يستجدي من شراحيل بن معن بن زائدة الشيباني:

---

- ابن عبد ربه الأندلسي: "مصدر سابق"، مج ٣ / ٤٠.

(١) مروان بن أبي حفصة: "مصدر سابق"، ص ٢٩.

(٢) المصدر السابق: ص ٥١.

(٣) نفسه: ص ٣٤.

وقد نجح هذا النهج مع والده ولا شك أنه سينجح مع ابنه، حيث يقول:

رَأَيْتُ ابْنَ مَعْنٍ أَنْطَقَ النَّاسَ جُوْدُهُ  فَكَلَّفَ قَوْلَ الشِّعْرِ مَنْ كَانَ مُفْحَمَا[1]

وفي نظري إن هذا العطاء كلَّف مروان وحده المديح / مديح معاني النوال والعطاء ولم يكلف غيره من الناس كما يزعم أو يدعي؛ فمروان يسقط على الناس ما ينطبق عليه هو، وهو نوع من النكوص يسميه المشتغلون في علم النفس "الإسقاط". وهو ما يعطينا نتيجة في غاية الأهمية ونحن في نهاية المطاف وهي أن المحرك في مدائح مروان الكثيرة والمتعددة يرجع إلى شهوته العارمة في حب المال وشراهة العنيفة في هذا الحب. إنه مديح العاطفة وتقوقع الرجل على هذه العاطفة وخروج شخصية معبرة عن هذا التقوقع ولكنه التقوقع المرضي المزمن إن جاز التعبير على المال وطلبه وكنزه، هذه شخصية مروان المتقوقعة على ذاتها نجدها من خلال تأمل أشعاره التي عبرت عنها وفضحتها وعكست حقيقتها. ولا تتوقف الدراسة عند هذا الحد وذلك حتى تتم معالجة الوسائل والسبل والأدوات التي طرقها مروان حتى يصل إلى هدفه من المديح، فلم تكن هذه الأشعار لتصل به إلى ما يريد لولا ما اشتملت عليه من ضروب التجديد / فهل اشتملت هذه الأشعار حقًا على ضروب من التجديد؟؟ وهل حققت لها هذه الضروب القبول؟. إن الإجابة عن التساؤل الثاني جد يسيرة وهي على البديهة وبدون مناقشة: نعم، لقد حققت ووفرت لها هذه الضروب من التجديد القبول. أما الأدلة على وجود هذه الضروب من التجديد في مديح مروان فهي التي تحتاج إلى المناقشة والبسط والتحليل، وهو ما تقدمه الصفحات الآتية.

(٦)

## ضروب التجديد التي سلكها مروان بن أبي حفصة في مديحه

لقد وقف الدارسون موقفًا غامضًا متباينًا من هذه القضية؛ حيث رأى بعض الدارسين أن مروان ابن أبي حفصة لم يخرج في مديحه عن الإطار البدوي التقليدي / ومع ذلك عادوا ليتحدثوا عن بعض ضروب التجديد التي انتهجها الرجل في شعره، فالرجل ضمن مدائحه بعض التجديد ولكنه التجديد الجزئي الذي يرتبط بالمديح السياسي للعباسيين، وعلى ذلك فالدارس يجد نفسه أمام إشكالية تفرض عليه ضرورة إبداء الرأي فيها؛ لاسيما أن

---

(١)نفسه: ص ١٠١.

هذا الرأي قد يساعد في الكشف عن شخصية الرجل أو على الأقل يقدم نتائج تخدم هذه القضية؛ فما حقيقة التجديد الذي قدمه مروان وهل اقتصر على غرض المديح وحده أم تجاوزه إلى غيره من أغراض؟. ويبدو أن ذكر هذه القضية [التجديد من عدمه] يزيد الأمر صعوبة وتعقيداً؛ لأنه يرتبط بشخصية مروان ويقود إليها؛ ولأن هذه الشخصية لا توجد بمعزل عن هذه الإشكالية، وما طرحت في هذا السياق إلا لتعين على فهم وتعمق هذه الشخصية؛ إذ إن الهدف الرئيس من معالجتها يكمن في اتخاذها وسيلة إضافية للتعرف أكثر ومن قرب على شخصية الرجل؛ وعلى ذلك فليس في معالجتها عبث أو شيء من العبث، وهو ما يحتم ولوجها قبل أن نختم هذه المباحث المتعلقة بشخصية الرجل في المديح بين العاطفة والشعر. ويأتي محقق شعر مروان ليسير في ركاب الرأي القائل:إن أشعار مروان المدحية تكرارٌ وإعادةٌ؛ حيث يقول: "وأما معاني شعره فقليلة معدودة ومكررة معادة وبخاصة في المديح؛ فإنه اقتصر على ترديد صفات معينة كالكرم والشجاعة والشدة والأصل العريق"[1]. وهو ما يراه د.طه حسين إذ يقول: "وهو لا يخرج في مدحه عن سنة الشعراء من قبله [خاصة في مدائحه لمعن] ولكنه جيد المعاني حسن الألفاظ صافيها.....[فشعره] أقرب إلى شعر الجاهليين والإسلاميين منه إلى شعر المحدثين من شعراء الحضارة العباسية تقرؤه فتجد عليه هذه المسحة التي تخلو أو تكاد تخلو من الدعابة والخفة وتمتاز بشيء من الجلال والرصانة وهو يمثّل البادية تمثيلا صحيحًا، ولهذا أثره في جهة أخرى فقد رضي علماء اللغة جميعًا عن مروان...لأنه كان أقرب إلى الأسلوب البدوي القديم"[2]. ويأتي د.نجيب محمد البهبيتي ليسلك مروان في مدرسة الشعر المحافظ أو أنصار مذهب الأوائل؛ وهي تلك المدرسة التي تجري على جادة القدماء في نهج القصيدة وموضوعها وديباجتها ولفظها في نظره[3]، حيث يقول:"فمروان استمرار لمذهب الأوائل واتصال التقاليد الشعرية يقوم هو ومدرسته في قلب عصر جديد"[4].

---

(١)نفسه، ص١٣.

(٢)د.طه حسين:"مرجع سابق"، ص٢٣٥، ٢٣٦.

(٣)د.نجيب محمد البهبيتي:"تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري"، مطبعة الخانجي: القاهرة، ط٣، ١٩٦٧م. ص٤٧٢.

(٤)المرجع السابق: ص ٤٧٣.

ويسير أحد دارسي مروان مع هذا الرأي ولكنه يبالغ فيه إلى أبعد الحدود خاصة عندما يقدم مروان بن أبي حفصة بهذه الصورة التي تجعله يدور في دوائر مغلقة من التقليد والاتّباع، يقول: "ولهذا فإن معاني مروان في شعره تدور حول معانٍ محدودة لا تتجاوزها إلى سواها كما أنها لم تكن وقفًا عليه وإنما هي معانٍ ملقاة في الطريق يأخذ منها البدوي والحضري ويستقي منها العربي الصرف والمستعرب وليست هناك مفاضلة إلا في قوة الأسر وحسن السبك وكثرة الماء والرّوَاء كما يقول الجاحظ في حديثه عن المعاني. وقد سبق الشعراء الجاهليون والإسلاميون مروان إلى تلك المعاني ونظموا منها قلائد در وعقيان حلّوا بها أعناق ممدوحيهم ونسجوا منها ثياب عزٍّ وفخرٍ كسوهم إياها حين مدحوهم، وكانت مصدر بكاء وسبب نواح حينما رثوهم، لذا فإن مروان لم ولن يستطيع أن يأتي بجديد من المعاني وحديث إلا لمامًا، بل سيظل أسير معاني الأقدمين ورجع صدى لهم يكرر ما تغنى به زهير ويعيد ما شدا به الحطيئة وجرير، ولهذا نجده غير قادر على التصرف بعد زمن طويل لاكت ألسنة الشعراء خلاله هذه المعاني وروضتها لأفانين القول والإبداع "[1].

وإذا كان كل دارسي مروان السابقين[ طه حسين، مصطفى الشكعة، نجيب البهبيتي، حسين عطوان، محمد عارف حسين] لا ينفون عنه بعض ضروب التجديد التي مارسها في شعره والتي كان له الفضل في ابتكارها، حيث ذهبوا إلى أن للرجل بعض التجديد خاصة في مديحه السياسي وانتصاره للعباسيين على العلويين / فإن هناك دارسًا واحدًا قد شذ عن هذا الإجماع وخالفهم هذا الرأي لينفي عن مروان أي ضرب من التجديد، حيث يقول: "وهكذا كان مروان شاعرًا عباسيًا بزمانه ولكنه جاهلي في نزعته وطريقته وعباسي الوقت والعصر ولكنه يلتحف برود الجاهلية ويشرب من معينها بكل ما تمثله من قسوة وخشونة وصلابة وجزالة في حياتها وفي شعر شعرائها"[2]، ويقول أيضًا: "وأقول إنه لولا وجود بعض الإشارات والصور المستمدة من القرآن الكريم ومن التاريخ الإسلامي والتي وظفها مروان توظيفًا جديدًا لخدمة الفكرة التي يدافع عنها

---

(١)إسماعيل حمد السماعيل: "مرجع سابق"، ٢٥٩، ٢٦٠.

(٢)المرجع السابق: ص٢٦٥.

ويشيد بها لولا ذلك لحق لنا أن نحسب مروان شاعرًا جاهليًا صرفًا تأخر به زمنه"[1].

إن السؤال يفرض نفسه في هذا السياق عن حقيقة وجود التجديد من عدمه في مديح مروان! فهل قدم مروان معانيَ مبتكرة وجديدة أم ظل حبيسَ على المعاني الجاهلية والإسلامية؟ وما الأدلة على وجود ضروب التجديد في شعره؟ وإذا كان الإجماع ينعقد على أن مروان جدد في المديح السياسي الذي يحتاج إليه العباسيون، فإن الأمر لا يقف عند هذا الحد. حيث يتراءى لي أن مروان لم يقتصر على هذا التجديد فحسب ولكنه قدم ألوانا من المعاني والصور المبتكرة في نواح أخرى غير المديح السياسي السابق، وهذا يقود إلى القول: إن مروان عاش زمانه وتمثله بل إنه قد سبق هذا الزمان وتجاوزه في بعض الأحيان، ويظهر ذلك جليًا من خلال الوقوف على ضروب التجديد التي حملها لمدائحه بخاصة وأشعاره بعامة، بما يعني أن الرجل لم يقف عند حد القديم ولكنه طور من نفسه وجدد في شعره لكي يصل إلى أهدافه التي يضعها أمام عينيه وهذه الأهداف في ذاتها تفرض عليه التجديد فرضا وتجعل منه أمرًا حتميًا في شعره. ولا مناص الآن من الوقوف على الأدلة التي تثبت ضروب التجديد التي التزمها الرجل في أشعاره:

* الدليل الأول: إن أشعار مروان تحمل الإرهاصات الأولى والإشارات المبكرة والمبتكرة إلى شعر الحرب، ذلك الغرض المبتكر الجديد الذي تعمقه أبو تمام والمتنبي وأصبح غرضًا مستقلا على أيدي الشعراء فيما بعد، فلقد اشتملت أشعار مروان على التفاصيل التي تجعلها بحق الإرهاصات والبدايات الأولى لظهور هذا الفن، ولولا ما قدمه مروان وأمثاله من شعراء الباكورة العباسية لما استقل هذا الغرض المستحدث في القرن الثالث الهجري وأصبح من خصوصيات القرن الرابع الهجري عند المتنبي بما سجله من انتصارات سيف الدولة الحمداني. ويكفي أن نتأمل قول مروان لنقف على حقيقة هذا التجديد الذي بدأه في مدائحه والذي يحمل الإرهاصات القوية الأولى لشعر الحرب في الأدب العربي، يقول في مدح الفضل بن يحيي البرمكي الذي أخمد الثورة في خراسان:

يَلِيْنُ لِمَنْ أعْطَى الخَلِيْفَةَ طَاعَةً ... ويَسقِي دَمَ العَاصِي الحُسَامَ المُهَنَّدَا
أذَلَّتْ مَعَ الشِّرْكِ النِّفَاقَ سُيُوفُهُ ... وكَانَتْ لأهْلِ الدِّيْنِ عِزًّا مُؤَبَّدَا
أبَحْتَ جِبَالَ الكَابُلِيِّ ولَمْ تَدَعْ ... بِهِنَّ لِنِيْرَانِ الضَّلَالَةِ مَوْقِدَا

---

(٣)نفسه: ص٢٧١. الدارسون هم [طه حسين، مصطفى الشكعة، نجيب البهبيتي، حسين عطوان، محمد عارف حسين].

فَأَطْلَعْتَهَا خَيْلاً وَطِئْنَ جُمُوْعَهُ قَتِيْلاً ومَأْسُوْرًا وفَلاًّ مُشَرَّدَا
وعَادَتْ عَلَى ابْنِ البَرْمَكِ نُعْمَاكَ بَعْدَمَا تَحَوَّبَ مَخْذُولاً يَرَى المَوْتَ مُفْرَدَا[1]

ويقول مروان في نفس القصيدة وقد توسع في الحديث عن انتصارات الفضل:

لَقَدْ صَبَحَتْنَا خَيْلُهُ ورِجَالُهُ بِأَرْوَعَ بَدْءِ النَّاسِ بَأْسًا وسُؤْدَدَا
نَفَى عَنْ خُرَاسَانَ العَدُوَّ كَمَا نَفَى ضُحَى الصُّبْحِ جِلْبَابَ الدُّجَى فَتَعَرَّدَا
لَقَدْ رَاعَ مَنْ أَمْسَى بِمَرْوٍ مَسِيْرُهُ إِلَيْنَا وقَالُوا شَعْبُنَا قَدْ تَبَدَّدَا
عَلَى حِيْنَ أَلْقَى قُفْلَ كُلِّ ظُلَامَةٍ وَأَطْلَقَ بِالْعَفْوِ الأَسِيْرَ المُقَيَّدَا
وَأَفْشَى بِلا مَنٍّ مَعَ العَدْلِ فِيْهِمُ أَيَادِيَ عُرْفٍ بَاقِيَاتٍ وعُوَّدَا
فَأَذْهَبَ رَوْعَاتِ المَخَاوِفِ عَنْهُمُ وأَصْدَرَ بَاغِي الأَمْنِ فِيْهِمْ وأَوْرَدَا[2]

ينقل مروان إلى المتلقي جوَّ هذه المعركة التي قادها الفضل بن يحيى البرمكي ويستطرد في الحديث عنها وعن آثارها على أهل بغداد، كما إنه لم يقف أمام جهوده التي قضت على التمرد في هذا الإقليم النائي فحسب ولكنه ينقل إلينا ما جرى من أحداث. فالأبيات مليئة بالحركة؛ تلك الحركة التي تعكس مسيرة الجيش وحركته وآثاره الواقعة على الخارجين" نَفَى عَنْ خُرَاسَانَ العَدُوَّ كَمَا نَفَى ضُحَى الصُّبْحِ جِلْبَابَ الدُّجَى فَتَعَرَّدَا". وليس هذا النقل لأجواء الجيش وتحركاته إلا صدى للحدث نفسه، فهو نقل وتسجيل لمجريات القتال وما يحيط بها من آثار نفسية دقيقة. وتتبدى هذه الإرهاصات بقوة في قصيدته "الهائية" الشهيرة التي مدح بها المهدي، والتي مطلعها:

طَرَقَتْكَ زَائِرَةٌ فَحَيِّ خَيَالَهَا بَيْضَاءُ تَخْلِطُ بالحَيَاءِ دَلالَهَا[3]

حيث يظهر فيها مروان بمظهر من يؤسس ويقعد لهذا الغرض؛ حيث يعرض في هذه القصيدة عرضا للأسس والقواعد التي قام عليها هذا الغرض فيما بعد. وكأنه يعلم بجوانب الابتكار والجدة التي تحملها قصائده. فها هو يقول ملخصًا جهود المهدي في حماية ثغور المسلمين ببلاد الشام المتاخمة لحدود بلاد الروم، وهو يرسي دعائم هذا الغرض ويقعد له، مما يمثل الإرهاصات الأولى القوية والإشارات الواضحة إلى هذا الغرض

---

(١)مروان بن أبي حفصة: "مصدر سابق"، ص ٣٢.
(٢) المصدر السابق: ص٣١.
(٣)نفسه: ص٩٦.

الوليد:

هَـلْ تَعلَمُـونَ خَلِيفَـةً مِـنْ قَبْلِـهِ     أجْرَى لِغَايَتِهِ الَّتي أجْرَى لَهَا
طَلَـعَ الـدُّرُوبَ مُـشَمِّرًا عَـنْ سَـاقِهِ     بِالخَيْلِ مُنْصَلِتًا يُجِدُّ نِعَالَهَا
قُـودًا تُرِيـعُ إلـى أغَـرَّ لِوَجْهِـهِ     نُـورٌ يُـضِيءُ أمَامَهَا وخِلالَهَا
قَـصُرَتْ حَمَائِلُـهُ عَلَيْـهِ فَقَلَّـصَتْ     ولَقَدْ تَحَفَّظَ قَيْنُهَا فَأطَالَهَا
حَتَّـى إذَا وَرَدَتْ أوَائِـلُ خَيْلِـهِ     جَيْحَانَ بَثَّ عَلَى العَدُوِّ رِعَالَهَا
أحْمَـى بِـلادَ المُـسْلِمِينَ عَلَـيْهِمُ     وأبَاحَ سَهْلَ بِلادِهِمْ وجِبَالَهَا
أدْمَـتْ دَوَابِـرَ خَيْلِـهِ وشَـكِيْمَهَا     غَـارَاتُهُنَّ وألْحَقَـتْ آطَالَهَا
لَـمْ تُبْـقِ بَعْـدَ مَقَادِهَـا وطِرَادِهَـا     إلا نَحَائِزَهَـا وإلا آلَهَـا[1]

إن مروان بن أبي حفصة يوظف انتصارات المهدي في الثغر الشامي ويستغلها في مديحه، ويربط بين هذه الفتوح والانتصارات وبين صفات الخليفة. فلقد خاض الخليفة المهدي المعارك الحاسمة في هذا الثغر من أجل القضاء على فلول الروم ولم يقتصر على مواجهتهم في ساحات القتال ولكنه تعقبهم في الطرق الضيقة والمسالك الخفية حتى يقضي عليهم قضاء مبرمًا: "طَلَعَ الدُّرُوبَ مُشَمِّرًا عَنْ سَاقِهِ بِالخَيْلِ مُنْصَلِتًا يُجِدُّ نِعَالَهَا". وما الإلحاح على ذكر التفاصيل إلا دليلٌ على وعي مروان بهذا الغرض الوليد، ولم تكن هذه الإشارات المتكررة إلى هذه الوقائع والانتصارات من قبيل المصادفة / بقدر ما أنها تعبير عن إدراك الرجل ووعيه التام بالأسس والقواعد التي يقوم عليها شعر الحرب.

ولقد كان مروان على وعي دقيق بالمادة الأولية التي يحتاج إليها هذا الغرض، ويتبدى هذا جليًا في وقوفه أمام واقعة من الوقائع وتصديه لذكر تفاصيلها وأحداثها. وهو عين ما فعله أمام واقعة الثغر الشامي التي لم يكتف فيها المهدي بطرد الروم من هذا الثغر ولكنه تعقب فلولهم في الطرق الوعرة والمسالك الضيقة الخفية لكي يطهر البلاد من رجسهم وشرهم. ويسجل مروان كل هذا تسجيلا دقيقًا:

حَتَّـى إذَا وَرَدَتْ أوَائِـلُ خَيْلِـهِ     جَيْحَانَ بَثَّ عَلَى العَدُوِّ رِعَالَهَا

---

(1) نفسه: ص٩٨، ٩٩. والنحائز بالزاي المعجمة الطباع.

أَحْمَى بِلادَ المُسْلِمِيْنَ عَلَيْهِمُ وأَبَاحَ سَهْلَ بِلادِهِمْ وجِبَالَهَا

ولم ينس مروان أن يقف أمام ما أصاب الخيل من جهد وإعياء ومع ذلك لم يتوقف المهدي عن الملاحقة والمتابعة لهذه الفلول؛ وعلى ذلك فإن أشعار مروان تحمل الإرهاصات الأولى والقوية لشعر الحرب وتمجيد البطولات الإسلامية ذلك الفن الوليد والمبتكر الذي اكتملت أركانه وأصبح غرضًا مستقلاً في القرن الرابع الهجري؛ وهو ما يعني أن مدائح مروان لم تقتصر على التقليد والاتِّباع ولكنها تميزت بالجدة والابتكار، كما أن هذه المدائح بهذا الصنيع تقف شاهد إثبات على ضروب التجديد التي سلكها مروان وقصد إليها قصدًا في أشعاره / بما يجعلها الدليل والبرهان على جوانب التجديد والابتكار التي التزمها الرجل.

* الدليل الثاني: إن مروان بن أبي حفصة لم يقتصر على المعاني التقليدية أو الصور المكررة في مديحه ولكن كانت له تجديداته الخاصة التي انفرد بها في معاني المديح وكانت له ابتكاراته المستقلة والواضحة في هذه المعاني. ويخطئ من يظن أن كل معانيه في المديح قد اقتصرت على المعاد أو المكرر أو قد دارت في فلك واحد ولم تتعده إلى غيره؛ لأن أشعاره قد حملت ضروبًا من التجديد في هذه المعاني، ويكفي أن نتأمل وصفه لبني العباس لنرى صورة من هذه الابتكارات والتجديدات وذلك في معرض مدحه للمهدي:

أَيَادِي بَنِي الْعَبَّاسِ بِيْضٌ سَوَابِغٌ عَلَى كُلِّ قَوْمٍ بَادِيَاتٌ عَوَائِدُ
هُمُ يَعْدِلُوْنَ السَّمْكَ مِنْ قُبَّةِ الهُدَى كَمَا تَعْدِلُ البَيْتَ الحَرَامَ القَوَاعِدُ[1]

ففي هذه الصورة المدحية تجديد؛ فالعباسيون يحمون الهدى ويحرسونه كما أن القواعد هي التي تحمي البيت الحرام؛ وفي الصورة ابتكار وطرق لمعنىً جديد حيث تتبدى أهمية الخلافة العباسية في الحفاظ على أركان الدين كما تتبدى أهمية قواعد البيت الحرام في حمل أركانه، وكأن الدين لا يمكن أن يحرس ويتمكن بدون العباسيين فكذلك البيت لا يمكن أن يستقيم بغير قواعده. وهذا الافتقار من جانب الدين إلى العباسيين يعمق مكانة هؤلاء العباسيين ويبالغ في مكانتهم. كما أن افتقار البيت إلى

---

(١)نفسه: ص٣٧.

قواعده يبين أهمية وقيمة هذه القواعد. وهي صورة من إبداع وابتكار ابن أبي حفصة، ويبدو أن المناسبة هي التي أوحت لمروان بطرقها، ويسوق مروان في نهاية القصيدة صورة مبتكرة أخرى حيث يقول:

يَـزِيْنُ بنـي سَـاقِي الحَجِـيْجِ خَلِيْفَـةٌ ... عَلَى وَجْهِهِ نُورٌ مِنَ الحَقِّ شَاهِدُ
يَكُـونُ غِـرَارًا نَوْمُـهُ مِـنْ حِـذَارِهِ ... عَلَى قُبَّةِ الإسْلامِ والخَلْقُ شَاهِدُ
كَـأنَّ أمِيْـرَ المُـؤْمِنِيْنَ مُحَمَّـدًا ... لِرَأفَتِـهِ بِالنَّـاسِ لِلنَّـاسِ وَالِـدُ
عَلَـى أنَّـهُ مَـنْ خَـالَفَ الحَـقَّ مِـنْهُمُ ... سَقَتْهُ بِهِ المَوْتَ الحُتُوفُ القَوَاصِدُ[1]

ويظهر مروان بن أبي حفصة بمظهر الغواص الماهر الذي يغوص من أجل أن يستخرج صيدًا ثمينًا من اللآلئ والدرر والأصداف الكريمة النادرة التي تجمل شعره، وما هذا الصيد الثمين بالنسبة له إلا هذه الصور المبتكرة التي يضمنها مديحه، فلقد قدم مروان صورة تشخيصية مبتكرة حيث جعل الحق شاهدا والوجه نورا في البيت، وقدم صورة حية عن متابعته لأحوال الرعية ومداومته على المتابعة"يَكُونُ غِرَارًا نَوْمُهُ مِنْ حِذَارِهِ عَلَى قُبَّةِ الإسْلامِ والخَلْقُ شَاهِدُ" ثم نتأمل التشبيه في قوله "كَأنَّ أمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ مُحَمَّدًا لِرَأفَتِهِ بِالنَّاسِ لِلنَّاسِ وَالِدُ" والتشبيه يقوي الرحمة والرأفة. ولا يخفى أن مروان يفعل ما يفعله المصورون في العصر الحاضر من خلال التركيز على الشخصيات المهمة، ولقد كان موقف مروان من الصور موقف الصانع الخبير بصناعته حيث طوره وجدد في صوره أحيانًا، واعتمد على السائد المألوف أحيانًا أخرى وهكذا عمل مروان على التجديد في شعره والابتكار في معانيه. ومن تجديده قوله في مدح يزيد بن مزيد الشيباني:

يَا أكْرَمَ النَّاسِ مِنْ عُجْمٍ ومِنْ عَرَبٍ ... بَعْدَ الْخَلِيْفَةِ يَا ضِرْغَامَةَ العَرَبِ
أفْنَيْـتَ مَالَـكَ تُعْطِيْـهِ وتُنْهِبُـهُ ... يَا آفَةَ الفِضَّةِ البَيْضَاءِ والذَّهَبِ[2]

والذي يغلب على الظن أن مروان أول من جعل الكرم والسخاء آفة ولكنها الآفة المحمودة التي تكون ميدانًا للفخر، وكان استخدام مروان لها مبتكرًا طريفًا منسجما مع الهدف متلائمًا مع الدلالة التي قصدها. ومن معانيه السائرة التي حسده عليها العباسيون وعنفوه كثيرًا من أجلها قوله:

---

(١) نفسه: ٣٧، ٣٨.

(٢) ابن عبد ربه الأندلسي: "مصدر سابق": ١ / ٢٥٣، ٢٥٤.– ومروان بن أبي حفصة: "مصدر سابق"، ص٢٢.

بَهَالِيْلُ فِي الإِسْلامِ سَادُوا ولَمْ يَكُنْ كَأَوَّلِهِمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ أَوَّلُ
ومَا يَسْتَطِيْعُ الفَاعِلُونَ فِعَالَهُمْ وإِنْ أَحْسَنُوا فِي النَّائِبَاتِ وأَجْمَلُوا
هُمُ الْقَوْمُ إِنْ قَالُوا أَصَابُوا وإِنْ دُعُوا أَجَابُوا وإِنْ أَعْطَوْا أَطَابُوا وأَجْزَلُوا"[1]

وقصة هذه الأبيات مع العباسيين معروفة وتكرارها يبين مدى جودتها ودقتها؛ كما أن تعنيف العباسيين المتكرر لمروان من أجلها هو الآخر يكشف قدرة الرجل على التصرف في فنون المديح، ورغبته في تجويد صناعته بكل ما أوتي من مواهب.

* الدليل الثالث: لم يكتف مروان بالتجديد في المعاني والصور المدحية ولكنه تعدي ذلك كله إلى التجديد في مطالع قصائد المديح ومقدماتها / خاصة تجديده في مقدمة وصف الرحلة، بما يعطي بعدًا مهمًا في حرص الرجل ووعيه بضرورة الابتكار وعدم قناعته بالمكرر المعاد من الشعر. ولم يلتفت أحد من دارسي مروان إلى هذه السمة كما فعلوا أمام السمة الأولى، مع أن الرجل قدَّم الجديد المبتكر فيها ولم يأتِ مقلدًا ولا حتى متبعًا لأحد، وله تجديده المستقل فيها.

وليس أدل على هذا من اهتمامه بمطالع قصائده اهتمامًا خاصًا؛ حيث أولى مروان هذه المطالع والمقدمات ما يتناسب مع أهميتها، بحيث إننا لا نعثر على مطلع ضعيف أو غير ملائم للقصيدة بل على العكس من ذلك نرى اهتمامًا وحرصًا على الاهتمام من خلال ما تحمله هذه المطالع من قوة ومن خلال ما تشتمل عليه من جمال وتزيين / ولا أجانب الحقيقة إذا ما قلت: من خلال ما تشتمل عليه من حرص على التجميل والتجويد، ولذا كان طبيعيًا أن تظهر مقدماته بهذه المظاهر المبهرة الجميلة هذا من جانب. ومن الجانب الثاني فإن مروان نوع في هذه المقدمات فبعضها يتحدث عن الطيف، وأخرى يتحدث فيه عن المشيب والشباب، وثالثة تناول فيها مروان وصف الرحلة وقد نوَّع في مقدمات وصف الرحلة فبعضها تقليدي بصياغة جديدة وبعضها الآخر مبتكر بأسلوب جديد؛ كتلك الرحلة التي قطعها مروان إلى الخليفة المهدي أثناء سقوط الأمطار والجو ملبد بالسحب / ويعد هذا الجو الذي قطع فيه مروان رحلته إلى الخليفة المهدي مبتكرًا جديدًا بكل المقاييس؛ حيث يتحدث مروان عن علاقة الأرض بهذه الأمطار التي تنهمر

---

(١) ابن عبد ربه الأندلسي: "مصدر سابق"، ١ / ٣٠٨.

– وفي رواية شعره ص ٨٨، ٨٩. تقديم للبيت الأخير [ الخامس ]، مكان البيت الرابع.

عليها ويطيل في تفصيل هذه العلاقة ورصدها ويجعل قطرات المطر المتساقطة عاشقة للأحجار التي تنزل عليها وتواجهها، فهذه الأحجار تحتضن المياه في حميمية وعشق وقطرات المياه تلتف بها التفاف العاشق المدنف، يقول مروان:

وكَأَنَّمَا طَرَقَتْ بِنَفْحَةِ رَوْضَةٍ ... سَحَّت بِهَا دِيَمُ الرَّبِيْعِ ظِلالَهَا
بِاتَتْ تُسَائِلُ فِي المَنَامِ مُعَرِّسًا ... بِالبِيْدِ أَشْعَثَ لا يَمَلُّ سُؤَالَهَا
فِي فِتْيَةٍ هَجَعُوا غِرَارًا بَعْدَمَا ... سَئِمُو مُرَاعَشَةَ السُّرَى ومِطَالَهَا
فكَأَنَّ حَشْوَ ثِيَابِهِمْ هِنْدِيَّةٌ ... نَحَلَتْ وأَغْفَلَتِ القُيُونُ صِقَالَهَا (١)

ففي هذا / الجو الرومانسي إن جاز التعبير / قطع مروان رحلته إلى الخليفة العباسي المهدي، وكانت الناقة التي أصابها التعب من طول الرحلة هي وسيلته في الوصول إلى الخليفة / ولا تخفى علاقة التوأمة بين قطرات المطر وما تسقط عليه من أحجار في هذه الصحراء، فكأن قطرات المطر النازلة تطرق باب الأرض المقفرة وهذه الأرض المقفرة لا تمل من سقوط أو طرق هذه القطرات لبابها. ولا يخفى أن هذا الجو الماطر الذي تتساقط فيه قطرات المطر على أحجار الصحراء يعد من الأجواء المبتكرة والخلفيات الجديدة وبخاصة أننا عهدنا الشعراء يقطعون رحلاتهم إلى الممدوحين في أجواء صحو يسيطر عليها الحر الشديد والوهج الحار الذي يصاحبه ظهور السراب المليء باللفح والقيظ وتوهج الحرارة، وأن يأتي مروان ويقطع رحلته في هذا الجو وتلك الخلفية فهذا معناه حرصه على التنويع والتجديد في مقدمات قصائده المدحية وأجوائها.

وكان مروان مولعًا بالمقدمات المبتكرة الجديدة وكان التجديد في هذه المقدمات من أولوياته التي يطمح إليها، ومن ذلك اهتمامه بتناول معاني الشيب والشباب في قصائده، ولا يخفى أن حرصه وعكوفه على هذه المعاني يعكس رغبة ملحة منه في تقديم مقدمات مبتكرة وجديدة تتجاوز المقدمات التقليدية المكررة، وهو ما تبرهن عليه هذه المقدمات نفسها، يقول مروان بن أبي حفصة ذاكرًا الشيب والشباب في مقدمة قصيدته اللامية التي مدح بها معن بن زائدة الشيباني:

---

(١) المصدر السابق، ص٩٦. ولقد أثبت جامع شعر مروان [العيون] في البيت الرابع والصواب [القيون]، وهي من الأخطاء التي وقع فيها غفر الله له، والقيون جمع قين وهو صانع السيوف.

أمْسَى المَشِيْبُ مِنَ الشَّبَابِ بَدِيْلا ... ضَيْفًا أقَامَ فَمَا يُرِيْدُ رَحِيْلا
والشَّيْبُ إذْ طَرَدَ السَّوَادَ بَيَاضُهُ ... كالصُّبْحِ أحْدَثَ للظَّلامِ أفُولا
إنَّ الغَوَانِيَ طَالَمَا قَتَّلْنَنَا ... بِعُيُونِهِنَّ ولا يَدِيْنَ قَتِيْلا
مِنْ كُلِّ آنِسَةٍ كَأنَّ حِجَالَهَا ... ضُمِّنَّ أحْوَرَ في الكِنَاسِ كَحِيْلا
أرْدَيْنَ عُرْوَةَ والمُرَقِّشَ قَبْلَهُ ... كُلٌّ أصِيْبَ ومَا أطَاقَ ذُهُولا
ولَقَدْ تَرَكْنَ أبَا ذُؤَيْبٍ هَائِمًا ... ولَقَدْ تَبِلْنَ كُثَيِّرًا وجَمِيْلا
وَتَرَكْنَ لابْنِ أبِي رَبِيْعَةَ مَنْطِقًا ... فِيْهِنَّ أصْبَحَ سَائِرًا مَحْمُولا
إلا أكُنْ مِمَّنْ قَتَلْنَ فَإنَّنِي ... مِمَّنْ تَرَكْنَ فُؤَادَهُ مَخْبُولا[1]

وتوحي إطالة مروان في مقدمة وصف الشيب والشباب برغبته الكامنة في الابتكار والتجديد، كما أن بيانه للعلاقة القائمة بين ظهور الشيب والغواني وتفصيله لهذه العلاقة ليحمل نفس الدلالة والرغبة في التجديد؛ ويمكن أن تقرأ مقدمات وصف الشيب والشباب قراءة جديدة تتماشى مع تدرج هذه الدراسة؛ فهذه المقدمات يمكن أن تحمل نوعًا مبتكرًا من الاستجداء قصد إليه مروان عن طريق إظهار ضعفه وحاله المستكينة لكي ترق القلوب له ؛ وعلى هذا فهو يستخدم هذه المقدمات كحيلة من أجل الوصول إلى التكسب. وليس أدل على هذا كله من تكراره لمقدمات الشيب والشباب وتوالي ورودها في قصائده نراه يقول:

صَحَا بَعْدَ جَهْلٍ فَاسْتَرَاحَتْ عَوَاذِلُهْ ... وأقْصَرْنَ عَنْهُ حِيْنَ أقْصَرَ بَاطِلُهْ
وَقَالَ الغَوَانِي: قَدْ تَوَلَّى شَبَابُهُ ... وَبُدِّلَ شَيْبًا بالخِضَابِ يُقَاتِلُهْ
يُقَاتِلُهُ كَيْمَا يَحُوْلَ خِضَابُهُ ... وَهَيْهَاتَ لا يَخْفَى عَلَى اللَّحْظِ نَاصِلُهْ
ومَنْ مُدَّ في أيَّامِهِ فَتَأخَّرَتْ ... مَنِيَّتُهُ فَالشَّيْبُ لا شَكَّ شَامِلُهْ[2]

ويظهر حرص مروان على التميز من خلال إلحاحه على مقدمات الشيب والشباب في مدائحه ومن خلال تجويده أيضا في هذه المقدمات؛ فلقد قدم مروان صنعة خاصة في هذه المطالع. وعلى ذلك فلا يخفى في هذا السياق أن تجديد مروان بن أبي حفصة قد اقتصر

---

(١) نفسه: ص٧٧، ٧٨.

(٢)نفسه: ص٩٤.

على التجديد والتنويع في المقدمات فحسب ولكنه التزم منهجًا آخر للتجديد والابتكار / تمثل هذا المنهج في عنايته بمطالع قصائده وحرصه على تجويدها بكل سبيل وتعكس وقفة أمام هذه المطالع جهود الرجل في تدبيجها وتزيينها وتجميلها؛ حتى كان هذا الاهتمام سمة في كل أشعاره وخصوصية من خصوصياته. ويكفي تأمل هذين المطلعين اللذين بدأ بهما مقدمتي الشيب والشباب السابقين، في قوله:

أَمْسَى المَشِيْبُ مِنَ الشَّبَابِ بَدِيلاً ضَيْفًا أَقَامَ فَمَا يُرِيدُ رَحِيْلا

وقوله: صَحَا بَعْدَ جَهْلٍ فاسْتَرَاحَتْ عَوَاذِلُهْ وأَقْصَرْنَ عَنْهُ حِيْنَ أَقْصَرَ بَاطِلُهْ

لنرى هذه الخصوصية على صاحبنا ولنعرف إلى أي حدٍّ أجهد نفسه في سبيل تقديم الجديد والمبتكر والمتفرد من هذه المقدمات ومطالعها.

أما مقدمات وصف الطيف التي انتهجها مروان فتظهر في قوله:

مَا يَلْمَعُ البَرْقُ إلا حَنَّ مُغْتَرِبُ كَأَنَّهُ مِنْ دَوَاعِي شَوْقِهِ وَصِبُ

أَهْلاً بِطَيْفٍ لأُمِّ السِّمْطِ أَرَّقَنَا وَنَحْنُ لا صَدَدٌ مِنْهَا ولا كَثَبُ

وُدِّي على مَا عَهِدْتُمْ فِي تَجَدُّدِهِ لا القَلْبُ عَنْكُمْ بِطُولِ النَّأْيِ يَنْقَلِبُ(١)

وتظهر في قوله كذلك:

طَافَ الخَيَالُ وحَيِّهِ بِسَلَامِ أَنَّى أَلَمَّ ولَيْسَ حِيْنَ لِمَامِ(٢)

وقوله: طَرَقَتْكَ زَائِرَةٌ فَحَيِّ خَيَالَهَا بَيْضَاءُ تَخْلِطُ بالحَيَاءِ دَلالَهَا

قَادَتْ فُؤَادَكَ فَاسْتَقَادَ ومِثْلُهَا قَادَ القُلُوبَ إلى الصِّبَا فَأَمَالَهَا(٣)

نخلص من هذا كله إلى نتيجة حتمية وهي حرص مروان بن أبي حفصة ورغبته في التجديد والابتكار في قصائده المدحية؛ كما أن شعره لم يكن تكرارًا أو إعادةً للمعاني التقليدية أو الموروثة منها فحسب، بل كان له حظ ونصيب من التجديد والابتكار الذي يميزه ويميز أشعاره.

* الدليل الرابع: ابتكار مروان بن أبي حفصة للحِجَاج السياسي والمذهبي للعباسيين وهو من قدم للعباسيين السند الشرعي الذي يحتاجون إليه في التصدي لحجج العلويين. ويعد

---

(١) نفسه: ٢٠.

(٢) نفسه: ١٠٤.

(٣) نفسه: ٩٦.

مروان المعلم الأول- إن جاز التعبير- لغيره من الشعراء العباسيين في طرقه لهذا النهج الحجاجي؛ فهو رائد هذا الاتجاه الذي أرسى دعائمه وبنى قواعده وحدث ولا حرج بهذا الخصوص / مما جعل الشعراء يتيممون نهجه ويسيرون على خطاه.

ولقد استطاع أن يبتكر الوسائل التي تعين العباسيين على مواجهة حجج أبناء عمومتهم العلويين؛ ومروان نفسه هو الذي قلب في هذه المعادلة ظهر المجن على العلويين بأشعاره في هذا السياق؛ لتكون الغلبة فيها للعباسيين بعد أن دامت للعلويين ردحًا من الزمن. وهو ما يعد ضربًا مميزا من ضروب التجديد يحسب لمروان بن أبي حفصة ويضاف كذلك إلى جوانب التجديد السابقة التي طرقها؛ حتى إن مروان قد سبق معاصريه من الشعراء العباسيين في هذا الباب وتفوق عليهم؛ بما يعني حرصه وسعيه الحثيث نحو الابتكار والتميز والتفرد بين أقرانه.

ولو لم يكن لمروان إلا هذا الضرب من التجديد لما جاز للبعض أن يتهمه بالتقليد والاتباع في معانيه وأشعاره؛ فهذا السبق في هذا الباب كفيل وحده بأن ينصه ويضعه في عداد المبتكرين والمجددين، إلا إذا كان هؤلاء يطلبون منه تقديم أشعار مبتكرة في مجموعها وعلى إطلاقها، فهذا ما لا يستطيعه مروان أو غيره. وتأتي أشعار مروان لتروي ظمأ العباسيين وتأكد أحقيتهم في الخلافة وتسقط كالصاعقة المدوية على العلويين. وكان طبيعيًا أن يأتيَ هذا الرأي:"ولعل شاعرًا لم يبلغ في هذا الدفاع[الدفاع السياسي عن أحقية العباسيين في الخلافة] مبلغه، إذ كان يعرف كيف ينقضُّ على العلويين بالحجة القاطعة"[1]، والنماذج على ذلك كثيرة؛ منها قول مروان في قصيدته الهائية الشهيرة والتي تعد البداية التي انطلق منها مروان في حجاجه عن العباسيين:

هَلْ تَطْمِسُونَ مِنَ السَّمَاءِ نُجُومَهَا ... بِأَكُفِّكُمْ أَمْ تَسْتُرُونَ هِلالَهَا؟

أَمْ تَجْحَدُونَ مَقَالَةً عَنْ رَبِّكُمْ! ... جِبْرِيْلُ بَلَّغَهَا النَّبِيَّ فَقَالَهَا

شَهِدَتْ مِنَ الأَنْفَالِ آخِرُ آيَةٍ ... بِتُرَاثِهِمْ فَأَرَدْتُمُ إِبْطَالَهَا[2]

وكان لارتباط هذه الأبيات بالحجاج السياسي وقيامها بالدفاع عن أحقية العباسيين

---

(١)د.شوقي ضيف:"العصر العباسي الأول"، دار المعارف: القاهرة، ط٥، ١٩٧٥م، ص ٢٩٩.

(٢)مروان بن أبي حفصة:"مصدر سابق"، ٩٩.

في الخلافة أبعد الأثر في إعجاب الخليفة العباسي المهدي بها؛ إلى حد أنه ترك مصلاه وأخذ يزحف على البساط حتى وصل إلى نهايته إعجابا وطربًا بما سمع. ويعلق د.نجيب البهبيتي على هذه الأبيات بقوله:"وكانت الخلافة العباسية في حاجة إلى هذه الفتوى التي أهداها إليهم مروان، لتكون أساسًا لاتهامهم العلويين بالخروج على صاحب السلطان الشرعي، فوجدوها في شعر مروان أولا"[1]، وكانت مكافأة المهدي لمروان نابعة ومرتبطة بهذا الحجاج السياسي الذي طرقه مروان وقدمه كهدية على طبق من ذهب له وللعباسيين؛ وقد تلقف العباسيون هذه الهدية أو المكافأة التي لا تقدر بثمن واحتفلوا بها كأحسن ما تكون الهدية؛ لأنها أصابت وترًا مهمًا عندهم وحققت لهم القدر الدعائي الذي يحتاجون إليه. ولم يكن تقدير المهدي لمروان في رأيي صادرًا من الأبيات المدحية في ذاتها؛ إذ لولا ما تحمله القصيدة من هذا الحجاج وتلك الدعاية في الدفاع عن العباسيين ضد العلويين لما لاقت كل هذا التقدير الذي لاقته. وتوالت أشعار مروان في هذا الميدان السياسي على هذه الشاكلة، حيث يقول:

طَافَ الخَيَالُ وحَيِّهِ بِسَلامِ ... أَنَّى أَلَمَّ ولَيْسَ حِيْنَ لِمَامِ

يَا ابْنَ الَّذِي وَرِثَ النَّبِيَّ محمدًا ... دُونَ الأقَارِبِ مِنْ ذَوِي الأرْحَامِ

الوَحْيُ بَيْنَ بني البَنَاتِ وَبَيْنَكُمْ ... قَطَعَ الخِصَامَ فَلاتَ حِيْنَ خِصَامِ

مَا لِلنِّسَاءِ مَعَ الرِّجَالِ فَرِيْضَةٌ ... نَزَلَتْ بِذَلِكَ سُورَةُ الأنْعَامِ

أَنَّى يَكُونُ ولَيْسَ ذَاكَ بِكَائِنٍ ... لِبَنِي البَنَاتِ وِرَاثَةُ الأعْمَامِ

أَلْغَى سِهَامَهُمُ الْكِتَابُ فَحَاوَلُوا ... أَنْ يَشْرَعُوا فِيْهَا بِغَيْرِ سِهَامِ

ظَفِرَتْ بَنُو سَاقِي الحَجِيْجِ بِحَقِّهِمْ ... وغُرِرْتُمُ بِتَوَهُّمِ الأحْلامِ

خَلُّوا الطَّرِيْقَ لِمَعْشَرٍ عَادَاتُهُمْ ... حَطْمُ المَنَاكِبِ كُلَّ يَوْمِ زِحَامِ

وارْضَوْا بِمَا قَسَمَ الإلَهُ لكم بِهِ ... وَدَعُوْا وِرَاثَةَ كُلِّ أصْيَدَ حَامِ[2]

ولا يخفى أن المعاني التي طرقها مروان في الأبيات السابقة قد مثلت القاعدة التي التزمها شعراء الحزب العباسي؛ حيث استقوا منها مادتهم الدعائية في تأييد العباسيين والدفاع عنهم وإثبات أحقيتهم بالخلافة،ويقول مروان في قصيدة أخرى سالكًا نفس

---

(١)"مرجع سابق"؛ ص٤٧٤.

(٢) مروان بن أبي حفصة:"مصدر سابق"؛ ١٠٤. وأرى أن الصواب في البيت الأول" فَحيِّهِ" مكان "وحَيِّهِ".

الطريق:

عَلَيَّ بَنِي سَاقِي الحَجِيْجِ تَتَابَعَتْ ... أَوَائِلُ مِنْ مَعْرُوفِكُمْ وَأَوَاخِرُ

فَأَصْبَحْتُ قَدْ أَيْقَنْتُ أَنْ لَسْتُ بَالِغًا ... مَدَى شُكْرِ نُعْمَاكُمْ وَإِنِّي لَشَاكِرُ

وَمَا النَّاسُ إِلا وَارِدٌ لِحِيَاضِكُمْ ... وَذُو نَهَلٍ بِالرِّيِّ عَنْهُنَّ صَادِرُ

حُصُوْنُ بَنِي الْعَبَّاسِ فِي كُلِّ مَأْزِقٍ ... صُدُورُ العَوَالِي والسُّيُوفُ البَوَاتِرُ

فَطَوْرًا يَهُزُّونَ البَوَاتِرَ والقَنَا ... وطَوْرًا بِأَيْدِيْهِمْ تُهَزُّ المَخَاصِرُ

بِأَيْدِي عِظَامِ النَّفْعِ والضُّرِّ لا تَنِيْ ... بِهِمْ للعَطَايَا والمَنَايَا بَوَادِرُ

لِيَهْنِكُمُ المُلْكُ الَّذِي أَصْبَحَتْ بِكُمْ ... أَسِرَّتُهُ مُخْتَالَةً والمَنَابِرُ

أَبُوكَ وَلِيُّ المُصْطَفَى دُوْنَ هَاشِمٍ ... وإِنْ رَغِمَتْ مِنْ حَاسِدِيْكَ المَنَاخِرُ[1]

تبين هذه الأدلة وجوهًا من التجديد التي حرص عليها مروان بن أبي حفصة وتعكس ضروب الابتكار التي سلكها، وتعطي اقتناعًا بأنه لم يكن مقلدًا صرفًا أو مكررًا للمعاني والصور التقليدية؛ بقدر ما كانت تدفعه الرغبة الشخصية والفنية في تقديم شعر يحمل بصمته الخاصة. فمروان لم يتحجر على نفسه في دائرة مغلقة، كما أنه لم يتقوقع على المعاني التقليدية، على الرغم من انتهاجه للطرق التقليدية في بناء قصائده المدحية، ويحق لمروان وغيره أن ينتهج البناء التقليدي ويتمسك به لكن؛ لا لكي يقدم عملا مكررًا معادًا ـ بل على العكس من ذلك تمامًا ـ ولكي يقدم عملا مستقلا له خصوصيته وتفرده على صاحبه، فالشاعر المتمكن وحده هو القادر على أن ينهج ويسلك الطرق التقليدية ومع ذلك فهو وحده أيضًا القادر على إبداع عمل فني خاص، وتقديم عمل شعري متفرد.

إن هذه هي النتيجة تطرح نفسها على الدارس وهو يستخرج شخصية مروان ابن أبي حفصة من بين العاطفة والمديح في هذا السياق والشعر في مجمل الدراسة؛ لكن هذه النتيجة تطرح مجموعة من التساؤلات الأخرى المهمة وهي ما الدوافع التي قادت مروان إلى التجديد والابتكار؟ وما البواعث التي جعلته يخوض هذه المعاناة وهو يقدم هذه الضروب التجديدية؟ وهل لهذه الدوافع والبواعث علاقة بشخصية الرجل؟ أم أن الرجل قدم هذه الضروب اعتباطًا دون أن يقصد إلى هدف أو أهداف بعينها؟

---

(١) المصدر السابق: ص٥٤.

إن الإجابة عن هذه التساؤلات ليست في صعوبة الحديث عن ضروب التجديد التي خاضها مروان، وتبدأ من الوقوف والإلحاح على هذه الضروب ذاتها، فمن الجوانب التي تتكشف للدارس من شخصيته نستطيع أن نتصدى للإجابة عن هذه الأسئلة، كما أن هذه الجوانب التي تكشفت من خلال قراءة شخصية مروان تقدم الكثير في فهم هذه القضية. ويمكن القول: إن واحدًا مثل مروان لا يمكن أن يتصرف تصرفًا دون أن يقدره حق التقدير، ومن هنا فإنه قصد إلى غاية من خلال ضروب التجديد التي ألزم نفسه بها، وأقول ألزم لأنها أكثر دلالة وأكثر مناسبة لطبيعة الشخصية المروانية. فلقد قصد مروان قصدًا إلى توفير كل عناصر الجودة والإبداع لأشعاره حتى تحقق القبول والنجاح الذي يتمناه لها حتى تروي نهمه في جمع المال وكسبه، وفي النهاية حتى تعود عليه هذه الأشعار بالمكاسب المادية التي ينشدها. وعلى ذلك كان تنقيح مروان لأشعاره مرتبطًا بهذه الغاية ولم يأت بعيدًا عنها، كما أن ضروب التجديد التي سلكها ارتبطت رأسًا بهذا الهدف. فقبول هذه الأشعار من ممدوحيه أمر شديد الأهمية له، فالعطايا والمكافآت المادية وقفٌ على تأثير هذه الأشعار في الممدوحين بغض النظر عن إخلاصه لهم من عدمه، والمهم هو صدق الرجل وإخلاصه مع نفسه.

إذا ما عرفنا ذلك نصل إلى القول بأن هذا السلوك من مروان ارتبط في الأصل بعاطفته الشخصية المحبة للمال، تلك العاطفة التي جعلت منه إنسانًا نهمًا وشرهًا وهو في أقوى درجات النهم والشراهة بل إنه في الدرجات المتطرفة والشاذة منها عندما يرتبط الأمر بالمال. فهو يوظف طاقاته ويسخر إمكاناته من أجل المال ولا يلتفت إلى أي شيء قد يعيقه عن الحصول على المال وتحصيله، وشأنه في ذلك عجيب وغريب ومثير للاهتمام والاستغراب فتراه يتقلب ويتلون ويتحول في سرعة فائقة بما يتناسب مع هذا الهدف. إن مروان يعرف أهدافه ويسعى إلى تحقيقها من أقصر الطرق. ولذا كان طبيعيًا – وهذه هي حاله – أن يسعى جاهدًا إلى تحقيق وتقديم ضروب من التجديد والابتكار في مدائحه خاصة وأن تقديمها سيمكنه من الوصول إلى هدفه في جمع المال واكتنازه من جانب، ويضمن له كذلك الحصول علي المال بكميات كبيرة من الجانب الثاني.

لقد كانت ضروب التجديد التي انتهجها مروان عوامل مساعدة وإضافية تمكنه من رواء نهمه وشرهه المادي وكانت كذلك وهو الأهم استجابة طبيعية لعاطفة المتطرفة

في هذا الحب؛ وفي الأخير جاءت العاطفة مع الشعر[المديح] لتقدم شخصية مروان وتكشف عنها في جانب جديد من إبداعه؛ ولا غرابة في هذه النتيجة إذ إن العاطفة الإنسانية تتميز بالثبات وعدم التغير، مهما تغيرت المراحل الزمنية التي يحياها صاحبها، حيث إنها مستقرة وواحدة وغير متحولة من مرحلة إلى أخرى؛ فهي في مرحلة الطفولة متقاربة مع مرحلة الشباب وغير متعارضة أو متحولة عن ذلك في مرحلة النضج والشيخوخة. هذه هي شخصية مروان بن أبي حفصة التي تتبدى من أشعاره في المديح؛ بالإضافة إلى شخصيته التي تتبدى أيضا من ضروب التجديد التي طرقها. فما الشخصية التي تتبدى من خلال أشعاره في الرثاء؟ وهل سيصيبها التغير والتبدل؟ إن هذين السؤالين يقودان إلى ضرورة مناقشة شخصيته عن طريق التعرف على العاطفة المروانية وعلاقتها بأشعاره في الرثاء.

(٧)

## شخصية مروان بين العاطفة والرثاء

كان الرثاء الغرض الثاني بعد المديح عند مروان بن أبي حفصة؛ حيث إنه نظم دررا من قصائده وأشعاره في هذا الغرض، واشتهر بمرثيته الرائعة في معن بن زائدة الشيباني، كما أنه رثى المهدي والهادي من الخلفاء العباسيين. فما الشخصية التي تتبدى من هذا الغرض؟ وما طبيعة العلاقة بين عاطفته وشعره في الرثاء؟ وهل أخلص الرجل في مراثيه؟ أم أن إخلاصه جاء على نفس النهج الذي سلكه في المديح؟.

وتفرض طبيعة العلاقة بين عاطفة مروان وشعره في الرثاء نفسها في هذا السياق؛ لترتب الإجابة عن بقية التساؤلات عليها أولا، إذ لا يخفى أن معرفة هذه العلاقة هي الأساس الذي ينبني عليه فهم هذه التساؤلات والأهم من ذلك أنها القاعدة التي يترتب عليها إصدار الأحكام والرؤى في هذه القضية. وكانت العلاقة بين مروان وقصائده في الرثاء ميدانًا للوقوف أمام عاطفته في هذه المراثي؛ بالإضافة إلى أنها ميدان لتقديم الأحكام عن هذه العاطفة. ويأتي د.محمد عارف حسين ليحكم على مروان وعاطفته في غرض الرثاء يقول فيه:"ولقد أجاد مروان في الرثاء، وإن لم يكن بالحد الذي أجاد به في المديح، وذلك لأن مروان كان راغبًا في المال حين مدح، أما في الرثاء فلم يكن راغبًا في

المال ولا طالبه؛ وإنما كان يفي بعهد ويشكر صنيعة"[1]. ثم يذهب ليقرر في نهاية مبحثه عن الرثاء هذه النتيجة:"ويظهر مما تقدم أن مراثيه في [معن] كانت أكثر صدقًا وأعمق عاطفة وأشد حرارة، أما مراثيه الأخرى[إشارة إلى مراثيه للخلفاء العباسيين] فينقصها صدق العاطفة وعمق الانفعال وبذلك كانت دون الأولى جودة وفنًا"[2].

على أن هذه النتيجة تناقض ما قرره الدارس في قوله:"وقد جاءت مراثي مروان على قدر كبير من الجودة والروعة خاصة مراثيه في معن بن زائدة وسر جودة مراثيه في معن راجع في رأيي[يقول الدارس] إلى مدى ما شعر به مروان من خسارة لحقته بفقد معن حيث ذهب نواله وزالت عطاياه"[3].

لقد أوقعنا هذا الدارس في حيرة من أمرنا من هذا التناقض فلم يحدد أكان التجويد راجعًا إلى صدق مروان في عاطفته تجاه معن وهو ما قرره في قوله السابق، أم أن التجويد في هذا الرثاء قد ارتبط بمروان نفسه وتوقف على عاطفته الخاصة التي تدفعه إلى البكاء نتيجة لهذا الفقد المادي الذي حرمه من رحيل معن؛ فكان بكاؤه على تلك العطايا التي فقدها كما قرر في هذا القول الأخير. ولقد اقترب هذا الدارس من التوجيه المناسب لأشعار مروان في رثاء معن عندما قال إن هذه المراثي فيه قد تميزت بالجودة وعمق العاطفة نتيجة ما شعر به مروان من خسارة لحقته بفقد معن حيث ذهب نواله وزالت؛ فالبكاء هو بكاء النوال والعطايا والعاطفة هي عاطفة حب المال التي احتكم بها مروان؛ وعلى ذلك فمروان لا يبكي معنًا وإنما يبكي النوال والعطايا التي خسرها من رحيله. وهو ما يقرره د.مصطفى الشكعة في قوله:"وهو إذا بكى أو رثى فلا يرثي إلا معاني النوال أولا ثم تأتي بقية الصفات الأخرى التي كان يتحلى بها الفقيد في الدرجة الثانية"[4]، وهو رأي له وجاهته وله ما يبرره من الأدلة، ويعكس قدرة صاحبه على فهم شخصية مروان من خلال الوقوف على طبيعة عاطفته في الرثاء.

---

(1)د.محمد عارف حسين:"مروان بن أبي حفصة شاعريته وشعره"، مطبعة الأمانة: القاهرة، ١٩٨٣م.ص ١٢٨.

(1)المرجع السابق: ص١٣٠.

(2)نفسه: ص١١٢.

(3)د.مصطفى الشكعة:"مرجع سابق"، ص ٣٢.

ويأتي بعض دارسيه ليحكم على عاطفته مرة من خلال مراثيه لمعن بن زائدة الشيباني حيث يقول:"بعد هذا يجب أن نتساءل عن أي عاطفة سيطرت على مروان في رثائه؟ – يجيب الدارس نفسه– لا شك أنها كانت عاطفة الصدق والإخلاص التي منحته هذه القدرة على تصوير الحزن والمبالغة فيه.....وهذه العاطفة هي التي أورثته النفس الطويل حتى استطاع أن يصور أحزانه وأن يعبر عن مشاعره التي تحتدم في فؤاده دون أن يضعف أو يهن أو ينضب معينه لأن العاطفة كانت قوية دافعة دافقة كالنهر متلاطمة كالبحر تحس فيها حرارة النار"(١). ويحكم عليه مرة ثانية من خلال رثائه للخلفاء العباسيين؛ حيث يقول:".....وعمومًا كيف نطالب شاعرًا كاذبًا في عاطفته تجاه العباسيين حينما مدحهم بالرثاء"(٢). ويقول أيضًا:"إن مروان لم يكن على استعداد لرثاء أي خليفة عباسي...فمهمته مع الخلفاء العباسين هي انتظار الدرهم والبحث عنه"(٣).

ويلاحظ على هذه الأحكام حرص صاحبها على تبني موقفين متعارضين لعاطفة مروان في رثائه يختلف كل منهما عن الآخر، وهو ما يعود بنا إلى الأحكام الأولى المعهودة والمقررة عن مروان والتي لا تضيف جديدًا إلى ما قرره دارسوه من قبل، وهي أحكام وآراء لا تتفق كذلك مع شخصيته التي يحملها، وعلى هذا فنحن أمام حرص من الدارس يبين عدم رغبته في تجاوز الأحكام النمطية المألوفة والآراء المكررة المعادة عن مروان بن أبي حفصة وشعره، ويعكس كذلك ابتعاد صاحبه حتى عن محاولة التعرف على شخصيته.

هذا هو مروان وهذه هي عاطفته في الرثاء عند مجموعة من الدارسين؛ فما حقيقة عاطفته في الرثاء؟ وهل تنسجم مع هذه الأحكام؟ وهل تنصرف إلى هذا التوجه الذي رأوه؟ أم أن الباعث في هذا التوجه يرتبط بشيء آخر؟.

لا يمكن لدارس أن يغفل طبيعة شخصية مروان وهو يحاول الوصول إلى رسم معالم دقيقة لشخصيته ولا يمكن أن يصل الدارس إلى شيء ذي قيمة في هذا الصدد إلا من خلال النفاذ إلى عاطفة مروان في الرثاء؛ لأن تحديد هذه العاطفة والوقوف على حقيقتها هو

---

(١)إسماعيل حمد السماعيل:"مرجع سابق"، ص١٨٠.

(٢) المرجع السابق: ص١٨٣.

(٣) نفسه: ص١٨٦.

السبيل الأول في هذا العمل. حيث تحمل أشعاره في الرثاء صدقًا قويًا قلما نعثر له على نظير أو مثيل إلا عند شاعر يحمل صفات مروان نفسه؛ فهو يحمل عاطفة خاصة / عاطفة متوهجة في رثائه، ومع ذلك لم تنصرف هذه العاطفة إلى الحزن على شخصياته التي قال فيهم أشعاره ولكنها تنصرف على فقده الخاص الذي أصابه. فهو يرثي حاله التي فقدت رافدًا من الروافد التي تمدها بالمال. وهذه العاطفة الخاصة جاءت قوية في رثائه لمعن بن زائدة الشيباني في ظاهر الأمر، وتفسير ذلك لا يعود إلى صدقه في عاطفته تجاه معنٍ، أو أنها تعود إلى حبه له وتعلقه به وإخلاصه له ولكنها ترتبط في الأساس بفقده لمصدره الوحيد الذي يدر له العطايا، وبخاصة أنه لم يكن قد اتصل بأحد غيره يعوض هذه العطايا والهبات التي كان معن يغدق عليه بها. وعلى ذلك فما يوجد في أشعاره من الحزن والحرقة في رثائه لمعن لا ينصرف إلى شخصية معن نفسه ولكنه يرتبط بعلته الخاصة ومصيبته الشخصية الكبرى التي ألمت به لاسيما أنه يصنف من رجال الأمويين ولا يعرف حتى لحظته الآنية ما إذا كان سيتصل بالعباسيين أم لا. هذه هي العلة الحقيقة التي يمكن الاعتماد عليها في قراءة أشعار مروان في الرثاء؛ فعاطفته قلما تنصرف إلى شيء غير المال ولا يمكن أن تصدق مع شخص آخر غير ذاته التي بين جنبيه؛ فهو حزين حزنًا لا يستطيع إنكاره دارس منصف ولكن العلة الحقيقية تكمن في النوازع القوية التي سببت هذا الحزن وزادت من مرارة الفقد التي تتمثل في الفقد المادي الذي ألقى بظلاله عليه؛ ولذا كان طبيعيًا أن يتعدى في شعره معاني الرثاء التي تتصل بالفقيد ليستغرق في بكاء العطايا والأموال التي حرمها من هذا الفقد؛ وليلح على ما يهمه إلحاحًا وهو الفقد المادي؛ وعلى ذلك يأتي رأي د.مصطفى الشكعة السابق ليصيب كبد الحقيقة ويكشف القناع عن حقيقته وحقيقة عاطفته؛ تلك الحقيقة التي غفل عنها بعض الدارسين وصدر فيها البعض الآخر عن الوهم وقد خدعهم مروان وأوقعهم في اللبس من خلال ذاك الرثاء القوي لمعن فظنوا وتوهموا أن هذا مرده راجع في الأساس إلى إخلاصه في عاطفته تجاهه وحبه له وارتباطه الوثيق به.

لو كان هذا المسلك الذي سلكوه صحيحًا لما انصرف مروان إلى بكاء الأموال والعطايا ولآثر الصمت عن هذا الموضوع ولما أقبل على ذكره في هذا السياق؛ إذ كان من الأولى أن يعدد مناقب هذا الفقيد ويقف أمام صفات الراحل دون أن يشير من قريب أو

بعيد لما يتعارض مع الرثاء الحقيقي، وكان من الأولى له كذلك ألا يغادر الفقيد إلى ذكر ما يرتبط بالمال والعطايا والصلات التي تخصه شخصيًا والتي تشكك في مصداقية الرثاء من أساسه، وبخاصة أنه وقف أمام مصابه الذاتي الخاص أكثر من وقوفه أمام صفات الفقيد الراحل، وجاءت أشعاره في الرثاء أقل بكثير من أشعاره في بكاء المال؛ فالرجل رثى المال بحق في أشعاره، وهو ما يعلن عن حقيقة هذه الشخصية ويكشف ذاك القناع الوهمي عنها الذي لازمها وغطى عليها ردحًا من الزمن. ولقد استغرق مروان في قصائده الرثائية الحديث عن مصابه وما ألمَّ به بسبب رحيل معن؛ إذ نراه يبكي ويتحسر على خسارته الشخصية، وعلى ذلك فمروان يرثي نفسه بهذه الصفات وهذه الصفات تنصرف إليه هو ولا تنصرف إلى معن أو غيره، ولم يكن معنٌ إلا المعادل الموضوعي لمروان ومصيبته التي نزلت به؛ ويكفي أن نتأمل قوله لنعرف إلى أي شيء ينصرف، هل إلى معن أو إلى العطايا؟ يقول:

ولَمْ يَكُ طَالِبٌ لَلْعُرْفِ يَنْوِي ... إلى غَيْرِ ابْنِ زَائِدَةَ ارْتِحَالا
مَضَى مَنْ كَانَ يَحْمِلُ كُلَّ ثِقْلٍ ... ويَسْبِقُ فَضْلُ نَائِلِه السُّؤَالا
ومَا عَمَدَ الوُفُودُ لِمِثْلِ مَعْنٍ ... ولا حَطُّوا بِسَاحَتِهِ الرِّحَالا
وَلا بَلَغَتْ أكُفٌّ ذَوِي الْعَطَايَا ... يَمِينًا مِنْ يَدَيْهِ ولا شِمَالا
وَمَا كَانَتْ تَجِفُّ لَهُ حِيَاضٌ ... مِنَ الْمَعْرُوْفِ مُتْرَعَةٌ سِجَالا
لأَبْيَضَ لا يَعُدُّ المَالَ حَتَّى ... يَعُمَّ بِهِ بُغَاةَ الْخَيْرِ مَالا
فَلَيْتَ الشَّامِتِيْنَ بِهِ فَدَوْهُ ... وَلَيْتَ الْعُمْرَ مُدَّ لَهُ فَطَالا[1]

لقد وصل هذا الاستغراق في بكاء المال إلى قمته على يد مروان بن أبي حفصة الذي لم يدع بيتًا من أبياته السابقة إلا وذكر فيه المال وبمعنى أدق إلا وبكى فيه المال بكاء شديدًا. وتفصح الأبيات عن طبيعة عاطفة مروان التي اتحدت مع الهبات والعطايا فلم تخرج لغته إلا لتعبر عن اتحاده بعاطفته أو تعبر عن هذه المعاني المرتبطة بالهبات والعطايا. ويستولى هذا الفقد المادي على مروان ويستولى عليه حتى إنه لا يستطيع منه الفكاك، ولهذا كان طبيعيًا أن يكون مضربًا للمثل في انكفائه على عاطفته وتمثله لها

(١)مروان بن أبي حفصة: "مصدر سابق"، ص٧٩، ٨٠.

في هذه المرثية بما يضمن له الحصول على المال أو يعبر عن خسارته للمال؛ فمروان يقدم بكائية خاصة على هذه الخسارة التي لحقته من رحيل معن، بل إنه يقيم عويلا متصلا على الأموال التي حرمها كنتيجة لهذا الحدث الجلل، فهذا الخطب فادح عليه لأنه سيحرمه من العطايا والهبات التي يمنحها له معن؛ ولا تنصرف هذه البكائية رأسًا لتركز على صفات معن، ومن هنا فمروان عندما يرثي أو يبكي فإنما يبكي خسارته التي لحقته في المقام الأول. وتتضح هذه المعادلة من خلال صورته التي تغيرت ملامحها والتي رسمها لنفسه بعد رحيل معن ؛ فلقد تغيرت حالته وتلونت صورته وأصابه الأرق والنحول لدرجة يصعب فيها معرفته لضياع معالمه، حيث يقول:

مَضَى لِسَبِيلِهِ مَنْ كُنْتَ تَرْجُو ... بِهِ عَثَرَاتُ دَهْرِكَ أَنْ تُقَالا
فَلَسْتَ بِمَالِكٍ عَبَرَاتِ عَيْنٍ ... أَبَتْ بِدُمُوعِهَا إِلا انْهِمَالا
وفي الأَحْشَاءِ منكَ غَلِيلُ حُزْنٍ ... كَحَرِّ النَّارِ يَشْتَعِلُ اشْتِعَالا
كَأَنَّ اللَّيْلَ وَاصَلَ بَعْدَ مَعْنٍ ... لَيَالِيَ قَدْ قُرِنَّ بِهِ فَطَالا
لَقَدْ أَوْرَثْتَنِي وبَنِيَّ هَمًّا ... وأَحْزَانًا نُطِيلُ بِهَا اشْتِغَالا
وَقَائِلَةٍ رَأَتْ جِسْمِي ولَوْنِي ... مَعًا عَنْ عَهْدِهَا قُلِبَا فَحَالا
رَأَتْ رَجُلاً بَرَاهُ الحُزْنُ حَتَّى ... أَضَرَّ بِهِ وأَوْرَثَهُ خَبَالا
أَرَى مَرْوَانَ عَادَ كَذِي نُحُولٍ ... مِنَ الهِنْدِيِّ قَدْ فَقَدَ الصِّقَالا
فَقُلْتُ لَهَا الَّذِي أَنْكَرْتِ مِنِّي ... لِفَجْعِ مُصِيبَةٍ أَنْكَى وعَالا
وَأَيَّامُ المَنُونِ لَهَا صُرُوفٌ ... تَقَلَّبُ بِالفَتَى حَالا فَحَالا
يَرَانَا النَّاسُ بَعْدَكَ فَلَّ دَهْرٍ ... أَبَى لِجُدُودِنَا إِلا اغْتِيَالا
فَنَحْنُ كَأَسْهُمٍ لَمْ يُبْقِ رِيشًا ... لَهَا رَيْبُ الزَّمَانِ ولا نِصَالا
فَلَهْفُ أَبِي عَلَيْكَ إِذَا العَطَايَا ... جُعِلْنَ مُنًى كَوَاذِبَ واعْتِلالا
وَلَهْفُ أَبِي عَلَيْكَ إِذَا القَوَافِي ... لِمُمْتَدَحٍ بِهَا ذَهَبَتْ ضَلالا
أَقمنا باليمامَةِ إِذْ يَئِسْنَا ... مُقَامًا لا نُرِيدُ لَهُ زِيَالا
وقُلْنَا أَيْنَ نَرْحَلُ بَعْدَ مَعْنٍ ... وَقَدْ ذَهَبَ النَّوَالُ فَلا نَوَالا[1]

---

(1)نفسه: ص٨١– ٨٣.

ماذا يبكي مروان في هذه الأبيات؟ أتراه يبكي معنًا ويرثيه؟؟ أم أنه يبكي مصابه الشخصي؟ ويرثي حالته النفسية الخاصة؟ لا نكاد نعثر على رثاء لمعن في هذه الأبيات إلا ما جاء لمامًا! ولكن الأبيات تحمل بكائية خاصة ورثاء متميزًا إنها بكائية الذات ورثاء النفس قبل كل شيء، فماذا يحمل قوله:"مَضَى لِسَبِيْلِهِ مَنْ كُنْتَ تَرْجُو بِهِ عَثَرَاتُ دَهْرِكَ أَنْ تُقَالا" غير البكاء على المال؟

لقد طرح مروان شعره لهذه العاطفة وأباح لها نفسه وسخر لها كل إمكاناته وتبعها في هذا الرثاء وعبر عن مرارتها وغصتها النابعين من هذا الفقد، وكان صادقا مع نفسه؛ أمينا في التعبير عن مصابه وقد بدا ذليلا خانعا نتيجة هذا المصاب، وحق للرجل أن يجزع وحق له أن يبكى كذلك وأن تتغير ألوانه وتشحب صورته ويتبدل رسمه/ وذلك كله لشيء واحد وهو أنه يبكي نفسه ويعبر عن عاطفته الممزقة التي أصابها الهم والغم، فلقد فقد الينبوع الوحيد الدافق الذي يمده بالأموال والهبات والعطايا؛ هذه هو السبب الأصيل في جزع مروان، وهو ما تعبر عنه البكائيات المتتابعة التي تأتي بعد البيت الأول، ويؤيد هذا الرأي بعض الدارسين بقوله:"وحين يموت معن بن زائدة تتوالى مرثيات ابن أبي حفصة عليه، وهي جميعا مع جودة إنشائها وروح ألفاظ مروان الجزلة التي ينسج خيوطها في براعة، فإننا نحس ببكاء مروان على عطايا معن وليس على معن نفسه"(١). ويقدم د.مصطفى الشكعة رأيه بصراحة حول رثاء الرجل ويبين أنه يبكي نفسه أولا والجانب الذي يهمه ثانيًا حيث يقول:"ثم ينطلق مروان في بكاء الجانب الذي كان يهمه من معن وهو جانب العطاء فيسيّر قصيدتَهُ كلَّها على هذا الدرب"(٢).

ويبدو مروان في هذه البكائيات مصابًا مكسورًا ومجروحًا معذبًا لأنه يبكي نفسه ويتجرع مرارة لها غصتها الأليمة في حلقه، ولم يكن مروان في كل هذا متصنعًا أو مجانبًا للحقيقة، لأن الرجل أمام مواجهة مع نفسه وأمام لحظة تجل مع الذات – إن جاز التعبير– هي التي تضاعف المرارة التي يكتوي بنيرانها ويتلظى بلهبها / وتتبدى هذه المرارة في حاله التي تحول إليها بعد وفاة معن؛ فلقد سدَّ هذا الباب المفتوح؛ وأغلق هذه النبع الجاري / نبع العطايا والهبات، ليس هذا فحسب ولكنه وجد نفسه بلا بديل لهذا

(١) د.مصطفى الشكعة:"مرجع سابق"، ص٤٠.

(٢) المرجع السابق: ص٤١.

النبع وبلا عوض لهذا الفقد، ولهذا كانت هذه البكائيات المتوالية التي أطلقها صورة منطقية لإخلاصه / فمروان يبكي حاله أولا قبل أن يبكي معنًا أو غيره، إنه يبكي نبعه الفياض الذي قطع بلا رجعة.

ولا شك أن هذا الحدث ثقيل على مروان خاصة وأنه يحيا من أجل المال وشخصيته تتمازج مع المال وتتحد معه في توأمية واتساق عجيب وهو في هذه البكائيات أشد تمازجًا واتساقًا مع شهوته الطاغية التي ولّت، فروحه وكينونته تساوي المال والعطايا، ولا قيمة لهذه الروح بدون العطايا والهبات التي يجد نفسه فيها، وعليه فلقد وهم الكثيرون ووقعوا في الخلط عندما أخرجوا هذه البكائيات من سياقاتها وذهبوا إلى تقرير بعض الآراء الجزئية عن الرجل وعن شخصياته الذين قال فيهم رثاءه. ولو نظروا إلى هذه المراثي في سياقها العام لما أقبلوا على هذه الأحكام الجزئية الواهمة في الأساس، والدليل على ذلك أنهم قدموا أحكامًا مقبولة عندما طرحوا هذا السياق الضيق، وكانت الأحكام أكثر ملاءمة لمروان.

وهذا ما فعله أحدهم عندما تجاوز هذه الإطارات الضيقة واستجاب لما تمليه شخصية مروان حيث يقول في تعليقه على الأبيات السابقة:"ثم أظهر الشاعر اللوعة والحسرة لفقد معن وصوّر ما أصابه وبنيه من شديد الهم والحزن، فقد نحل جسمه وبراه الهمّ والأسى لفقد هذا المعطاء السّخيّ الّذي كان موضع رجائه لإقالة عثرات الزمن لذا فهو يبكيه بدمع شجيّ لا يرقأ ولا يجف"[1]. أليس هو القائل وقد استبدت به شهوته وغلبت عليه أمره فلم يسمع إلا صوت المال ولم يأتمر إلا له وقد قطع كل أحبال الوصل إلا حبل المال جعله قويًا باقيًا موصولا:

أَقمنـا باليمامَــةِ إِذْ يَئِـسْنَا ... مُقَامًـا لا نُرِيْـدُ لَـهُ زِيَـالا
وقُلْنَـا أَيْـنَ نَرْحَـلُ بَعْـدَ مَعْـنٍ ... وَقَـدْ ذَهَـبَ النَّـوَالُ فَلا نَـوَالا[2]

ولا يحتاج رثاء مروان للخلفاء العباسيين إلى المزيد من الإفراد، لأن مروان لم يكن راثيًا بالمعنى الحقيقي للكلمة ولكنه كان متقمصًا لدور الراثي وبمعنى أدق كان مروان وصوليًا

---

(1)د.محمد عارف حسين:"مرجع سابق"، ص١١٧.

(2)المرجع السابق: ص٨٢.

نفعيًا في هذا الرثاء. لم يذهب إليه بدافع من الحب والإخلاص أو حتى بدافع من الكذب والنفاق ولكنه كان مقبلا عليه لأنه الوسيلة المناسبة لمقتضى الحال والتي تستقيم مع هدفه في قبض العطايا والوصول إلى الهبات. ولكن يبقى القول بأن مروان لم يكن مبغضًا للعباسيين أو محبًا لهم، ولم يأت رثاؤه باهتًا لكذبه في عاطفته أو عدم رغبته في الرثاء أصلا ولكن كل ذلك يرتبط بالمصلحة الشخصية للرجل، فالسياق الحقيقي لهذا الرثاء لا تربطه أي علاقة بالصدق أو الكذب أو الحب أو الكره بقدر ما يرتبط بما سوف يعود به على الرجل. فالسبب في صدور مروان عن النفعية والمصلحة لا غير / مرجعه إلى أنه يعرف أن أبواب النوال والعطاء التي يحرص عليها لم تغلق بموت هذا الخليفة أو ذاك ولا داعي للبكاء أو حتى بكاء الذات / فهي لم تخسر شيئًا في الأساس كما كان الحال من قبل في موت معن بن زائدة الشيباني الذي ارتبط فيه موت الرجل بزوال مصدر العطايا، وهذا الأمر لم يحدث في موت ورحيل الخلفاء العباسيين مما جعل الفتور يطغى على رثائه ويطغى حتى على القيام بدور المتقمص الرثائي الذي فرض نفسه عليه.

وهذه النتيجة من غير شك تقوي اليقين وتزيد من الاطمئنان بأن مروان لم يبك أو يرث إلا نفسه وحاله أولا قبل أن يبكي أو يجزع على الآخرين، هذه هي شخصية مروان التي تتبدى لي من رثائه والتي أراها أقرب إلى منحاه ومنهجه في الحياة، وعلى ذلك فرثاؤه يخرج من عاطفته الشخصية ليرتد بسرعة إلى ذاته التي بين جنبيه وهو ما يمثل بؤرة الشعور في كل الأوقات عنده ؛ أما شخصياته التي يقول فيها هذا الشعر / في الظاهر / فلا تحتل أكثر من الهامش البعيد عن الشعور في أحسن تقدير، ومن هنا فشخصية مروان رصينة وثابتة في الرثاء كرسوخها وثباتها في المديح؛ ولكي تكتمل أبعاد الصورة عن شخصيته لا بد من قراءة ومعرفة حقيقة هذه الشخصية في أغراضه الأخرى غير المديح والرثاء / / فما حال هذه الشخصية في موضوعاته الأخرى وما حقيقتها؟؟.

(٨)

## شخصية مروان بين العاطفة والموضوعات الشعرية الأخرى

لم يعرف لمروان شعر كثير غير غرضيه الرئيسين المديح والرثاء، ومع ذلك تقتضي المنهجية العلمية ضرورة معرفة حقيقة شخصيته في شعره المتبقي حتى نصل إلى رسم صورة أكثر دقة وأقرب مصداقية لشخصيته. وتجدر الإشارة بداية إلى أن مروان لم

يقل شعرًا ذا قيمة كبيرة غير المديح والرثاء؛ ولكن الإحاطة بشخصيته تقتضي قراءة هذا الشعر القليل للنفاذ منه إلى معرفة الشخصية؛ لاسيما وأن الشخصية كل لا يتجزأ ولا يمكن تكوين رأي مهم عن هذه الشخصية إلا بالاطلاع على مجمل هذا الشعر. ويأتي الفخر ليمثل غرضًا من هذه الأغراض القليلة التي طرقها مروان، فما شخصيته في الفخر؟ يبدو أن عاطفته راسخة طابعة على إبداعه بحيث إنه لم يفخر بنسب أو حسب أو جاه ولكنه فخر بشيء آخر أكثر أهمية عنده من كل هذه الأشياء ألا وهو العطايا والهبات التي نالها من ممدوحيه. ومعروف أن الإنسان إذا فخر فإنه يفخر بأشياء وقيم عظيمة!! وهذه القيم والمفاخر العظيمة ليست أكثر من المال عنده؛ لدرجة أن المفاخر الأخرى[ الأصل والجنس والنسب والحسب] لا تمثل قيمة عنده. إننا أمام معادلة محيرة مع أنها نافعة ومفيدة في هذا السياق لأنها تختصر الكثير من الجهد والعناء الذي يواجه الدارس وهو يتبين عاطفة مروان ومن بعدها شخصيته. هذه المعادلة تبين أن غرامه القديم والحديث، الظاهر والخفي يتمثل في حبه للمال وإقباله عليه، وهذه المعادلة تبين أن له عاطفة واحدة ودائمة وأصلية في كل الحالات والأطوار وهي انفعاله بالمال وإخلاصه له؛ هذا الإخلاص المعلن من أشعاره هذا الإعلان الصريح والمباشر ولكنه بلغة خاصة يعرفها من يطيل تأمل هذه الأشعار؛ فهي لغة ظاهرة معلنة ولكنها ليست بالقول المباشر بقدر ما أنها تفهم من السياق العام. ونترك الفرصة لهذه الأبيات الفخرية لكي تعلن عن هذه الشخصية المروانية:

(١) تَبْقَى قَوَافِي الشِّعْرِ مَا بَقِيْتُ (٢) والشِّعْرُ مَنْسِيٌّ إِذَا نُسِيْتُ
(٣) لَمْ يَحْظَ في الشِّعْرِ كَمَا حَظِيْتُ (٤) جَمْعٌ مِنَ النَّاسِ ولا شَتِيْتُ
(٥) كَم مَلِكٍ حُلَّتُهُ كُسِيْتُ (٦) وَمِنْ سَرِيْرِ مُلْكِهِ أُدْنِيْتُ
(٧) إِنْ غِبْتُ عَنْ حَضْرَتِهِ دُعِيْتُ (٨) وإِنْ حَضَرْتُ بَابَهُ حُيِّيْتُ[1]

إن هذه الأبيات تعبر عن شخصية مروان أبلغ تعبير؛ فمروان يقدم نفسه تقديمًا دقيقًا لا أثر فيه للغموض أو الإبهام، ولكنه يقدم هذه الشخصية ويعريها ويكشف عن طبيعتها الحقيقية. فماذا أبقى مروان للدارسين لكي يصلوا إلى معرفة شخصيته؟ إنه لم يبق لهم

(١)مروان بن أبي حفصة: "مصدر سابق"، ص ٢٦.

شيئا؛ بل إنه يقدم هذه الشخصية كأوضح ما تكون، وكعادته دائما يختصر المسافة ويصرح بما يريد؛ فالملوك هم من يحتاجون إلى الشاعر لكي ينظم فيهم مدائحه ويعبر عن أحقيتهم بالخلافة، وهذه الحاجة تضمن له العطايا والجوائز التي يطمح إليها. وليس في هذه التصريح ما يشينه؛ فهو يقدر قيمة شعره ولا يرى في هذا الوضوح حرجًا، وهو ما يؤكد ما ذهبنا إليه في بداية الدارسة من أن ممدوحي مروان كانوا أكثر جشعًا منه، وكلاهما راغب في بضاعة صاحبه. ولم يفعل مروان شيئا أكثر من التعبير عن هذه الحقيقة!!.

وتتضح هذه الشخصية بكل مكنوناتها العاطفية والانفعالية والداخلية كذلك من خلال الرجوع إلى رأي ابن المعتز في تفسير فخر مروان حيث يقول:"وقال مروان يفتخر وليس له فخر قديم ولا حديث غير الشعر"(١)؛ والذي يحمل إشارة إلى الطبيعة الحقيقية التي انطوت عليها هذه الشخصية، ويقدم كذلك صورة صادقة ودقيقة وأقرب إلى القبول لطبيعة هذه الشخصية خاصة وأن الفخر مرتبط بالذاتية وملتصق بها أكثر من التصاقه بغيره من الموضوعات الشعرية؛ وهو ما يكشف عن الشخصية وتطورها وأبعادها المتباينة لأنه يشير من قريب إلى نوازعها التي تنتابها ومحركاتها التي تدفعها بما يجعلها تدور في أفلاكها. ولا يخفى هنا أن ابن المعتز قدم برأيه السابق لأبيات مروان الفخرية التي تقدم صورة متكاملة وصادقة لهذه الشخصية المروانية؛ حيث يقول فيها:

وَلَقَدْ جَرَيْتُ مَعَ الجِيَادِ فَفُتُّهَا ... بِعِنَانِ لا شَبِمٍ ولا مَبْهُورْ
مَا نَالَتِ الشُّعَرَاءُ مِنْ مُسْتَخْلَفٍ ... مَا نِلْتُ مِنْ جَاهٍ وَآخُذِ بُدُوْرْ
عَزَّتْ مَعًا عِنْدَ المُلُوْكِ مَقَالَتِي ... مَا قَالَ حَيُّهُمُ مَعَ المَقْبُوْرْ
وَلَقَدْ حُبِيْتُ بِأَلْفِ أَلْفٍ لَمْ تُثَبْ ... إلا بِسَيْبِ خَلِيْفَةٍ وأَمِيْرِ
مَا زِلْتُ آنَفُ أَنْ أُؤَلِّفُ مِدْحَةً ... إلا لِصَاحِبِ مِنْبَرٍ وسَرِيْرِ
مَا ضَرَّنِي حَسَدُ اللِّئَامِ ولَمْ يَزَلْ ... ذُو الْفَضْلِ يَحْسُدُهُ ذَوُو التَّقْصِيْرِ
أَرْوِي الظِّمَاءَ بِكُلِّ حَوْضٍ مُفْعَمٍ ... جُودًا وأُتْرِعُ لِلسِّغَابِ قُدُورِيْ
وَتَظَلُّ لِلإِحْسَانِ ضَامِنَةَ الْقِرَى ... مِنْ كُلِّ تَامِكَةِ السَّنَامِ عَقِيْرِيْ
أُعْطِي اللُّهَا مُتَبَرِّعًا عَوْدًا عَلَى ... بَدْءٍ وذَاكَ عَلَيَّ غَيْرُ كَثِيْرِ

---

(١)ابن المعتز:"مصدر سابق"؛ ص ٤٦.

وَإِذَا هَـدَرْتُ مَـعَ الْقُـرُوْمِ مُحَاضِـرًا فِي مَوْطِنٍ فَضَحَ الْقُرُوْمَ هَدِيْرِيْ[1]

هذه هي شخصية مروان، وذاك هو إخلاصه. لقد تفرغ الرجل لهذا الحب وصدر عنه وفخر به على حد سواء. لم يجد مروان غضاضة في الفخر أو بمعني أدق في كشف شخصيته وتعريتها؛ لأن هذا الفخر يفصح عن الشخصية في حقيقتها ويزيل الإبهام والغموض اللذين ربما يكتنفانها. ويبدو أن حبه جعله رجلا عمليًا كما يقول د.طه حسين فلم يلتزم بما يلتزم به أصحاب المبادئ والقيم[2]، وهل كانت هناك قيم أو مبادئ لرجل لم يعترف بقيمة غير قيم المال والعطايا والهبات؟. إن مثله وقيمه تتمثل في المال وحبه، فالمثل هي ذلك الرسم الذي فرضه له الخلفاء العباسيون على أنفسهم وهو المئة ألف درهم[3]، الذي تتحطم كل القيم والمبادئ والمثل الأخرى في سبيله وفي سبيل الوصول إليه، هذه هي شخصية مروان في الفخر لم أرادها؛ شخصية واضحة لا أثر فيها للغموض أو الالتواء أو حتى التعقيد شأنها في ذلك شأن صراحة الرجل في تمثل عاطفته، وشأنها في ذلك شأن الوضوح والصراحة التي التزمها في سعيه الحثيث إلى المال. وإذا ما تركنا الفخر إلى الهجاء؛ لنتعرف على شخصية مروان في هجائه، فإننا نقف على النتيجة نفسها، وهي انطلاقه في هجائه عن المال والعطايا، ويكفي أنه هجا يعقوب بن داود وزير المهدي لأنه حال بينه وبين الدخول إلى المهدي؛ ومن هنا فلقد حرمه العطية وحرمه المال من هذا المنع؛ لذلك أنشأ على الفور الشعر في هجائه. فالدوافع المحركة له هي المال أو ما يرتبط به أو ما يؤدي إليه أو ما يحول دونه، تلك هي عقيدته التي تأسست عليها شخصيته، يقول في هجاء يعقوب ومرارة فقد العطايا ومنعها تلح عليه، وقد أطلق لسانه الحاد في يعقوب واستباح لنفسه التنديد به وبسياسته نتيجة لهذا الفعل الذي ارتكبه يعقوب في حقه[*]:

سَيَحْـشَرُ يَعْقُـوْبُ بْـنُ دَاوُدَ خَائِبًـا يَلُـوْحُ كِتَـابٌ بَـيْنَ عَيْنَيْـهِ كَـافِرُ

---

(٢)المصدر السابق: ص٤٦، ٤٧. – ومروان بن أبي حفصة: "مصدر سابق"؛ ص٥٥، ٥٦.

(١)د.طه حسين: "مرجع سابق"؛ ص٢٣٥.

(٢)ابن المعتز: "مصدر سابق"؛ ص٥١.

(*) لقد كان مروان في هذا الرأي تجاه يعقوب موافقًا لرأي بشار بن برد الذي كان أول من فطن إلى خيانة يعقوب بن داود للمهدي على الرغم من أن الأخير قد أعطاه من الصلاحيات الشيء الكثير، ولقد صدق بشار ومن بعده مروان في هذا الرأي، حيث أثبتت الحوادث والوقائع بعد ذلك فساد سياسة يعقوب واستبداده بالأمور، بل وخيانته للمهدي مما جعل المهدي ينكبه ويعزله عن الوزارة.

خِيَانَتُـهُ المَهْـدِيَّ أوْدَتْ بِـذِكْرِهِ فَأمْسَى كَمَنْ قَدْ غَيَّبَتْهُ المَقَابِرُ
بَـدَا مِنْـكَ لِلْمَهْـدِيِّ كَالـصُّبْحِ سَـاطِعًا مِنَ الغِشِّ مَا كَانَتْ تُجِنُّ الضَّمَائِرُ
وَهَـلْ لِبَيَـاضِ الـصُّبْحِ إنْ لاحَ ضَـوْؤُهُ فَجَابَ الدُّجَى مِنْ ظُلْمَةِ اللَّيْلِ سَاتِرُ؟
أمَنْزِلَـةٌ فَـوْقَ الَّتِـي كُنْـتَ نِلْتَهَـا تَعَاطَيْتَ لا أفْلَحْتَ مِمَّا تُحَاذِرُ(١)

لقد جاء شعره في كل أغراضه الشعرية تقريبا هادفا إلى المال وعاملا إليه بكل سبيل، أو جاء هذا الشعر على الأقل عاملا مساعدًا يعينه في الوصول إليه. فلم يكن الوصف أو الغزل أو الهجاء أو غيرها من الموضوعات الشعرية التي طرقها مقصودة لذاتها، ولكنها كانت جميعًا أغراضا مساعدة جاءت لتدور في السياق العام الذي هدفت إليه قصائده بما يخدم نفس الاتجاه الذي يتلاءم مع شخصيته وعاطفته من بعدها؛ هذه الشخصية وتلك العاطفة اللتان دارتا في فلك واحد ولم تتخطياه وهو العمل بكل سبيل من أجل المال واقتناصه.

ولا يخفى أن هذا الهدف يتناسب كذلك مع السياق الذي اختطه مروان لنفسه، ولهذا لن ترى هذه الأغراض الفرعية / الأغراض التي تمثل أجزاءً من قصائد فحسب أو تلك التي تمثل مقطوعات شعرية مستقلة / قد تجاوزت هذه الأهداف المحددة التي اختطها لنفسه وعمل من أجلها. ولنتأمل على ذلك شاهدًا آخر انطلق فيه مروان من هذه القاعدة حيث إنه وظف الهجاء لخدمة هذا الهدف وحده، ولم يكتف بذلك ولكنه هجا خصمه سلمًا الخاسر بقلة العطايا والجوائز التي حصل عليها. فمروان يهجو بدافع المال ويصدر عما يتصل به في أشعاره، يقول معيرًا سلمًا بقلة جائزته:

أسَلْمَ بنَ عَمْرٍو قَدْ تَعَاطَيْتَ خُطَّةً تُقَصِّرُ عَنْهَا بَعْدَ طُولِ عَنَائِكَا
وإنِّي لَسَبَّاقٌ إذ الْخَيْلُ كُلِّفَتْ مَدَى مِائَةٍ أوْ غَايَةً فَوْقَ ذَلِكَا
فَدَعْ سَابِقًا إنْ عَاوَدَتْكَ عَجَاجَةٌ سَنَابِكُهُ أوْهَيْنَ مِنْكَ سَنَابِكَا
رَأيْتَ امْرأً نَالَ اللُّهَا فَحَسَدْتَهُ فَلَمْ يَبْقَ إلا أنْ تَمُوتَ بِدَائِكَا
طَلَبْتَ مِنَ المَهْدِيِّ شَطْرَ حِبَائِهِ فَقَالَ لَكَ المَهْدِيُّ لَسْتَ هُنَالِكَا
فَمَا أعْوَلَتْ أمٌّ عَلَى ابنٍ ولا بَكَى عَلَى يُوسُفٍ يَعْقُوبُ مِثْلَ بُكَائِكَا
عَضَضْتَ على كَفَّيْكَ حتَّى كَأنَّمَا رُزِئْتَ الَّذِي أُعْطِيْتَ مِنْ صُلْبِ مَالِكَا

(١)مروان بن أبي حفصة: "مصدر سابق"، ص ٤٦.

حُبِيْــتَ بِأَوْقَــارِ البِغَــالِ وإِنَمَــا سَرَابُ الضُّحَى ما تَدَّعِي مِنْ حِبَائِكَا
ومَــا نِلْــتَ حَتَّــى شِــبْتَ إلا عَطِيَّــةً تَقُومُ بِهَا مَصْرُورَةً فـي رِدَائِكَا
وَمَا عِبْتَ مِنْ قَسْمِ المُلُوكِ لِشَاعِرٍ بِـهِ خُـصَّ عَفْوًا مِـنْ أُولَـى وأُولَئِكَا
فَأَقْــسِمُ لَــوْلا ابْــنُ الرَّبِيْــعِ ورِفْــدُهُ لما ابْتَلَّتِ الدَّلْوُ الَّتِي في رِشَائِكَا(١)

وقد أوردت في هذا المقام هذه القصيدة الهجائية بكامل أبياتها لأنها تستحق التأمل والإفراد، خاصة وأنها لون طريف ومبتكر من الهجاء. لم يلتزم فيها مروان بالطرائق المعروفة من الهجاء ولكنه قدم طريقة جديدة من الهجاء تعتمد على هجاء خصمه بقلة العطايا والجوائز التي حصلها، فمروان لم يهجه بسوء سلوك أو خلق أو صفات مما جرت العادة عليه، ولكنه تجاوز هذه التقاليد الهجائية ليقدم ضربًا مبتكرًا من الهجاء لا يخلو من الجدة والطرافة معا.

ولكن يبدو أن هذا اللون من الهجاء هو كل ما يملكه مروان من بضاعة في الهجاء، فهو في قيامه وقعوده / في سره وعلنه ليس له هم يؤرقه إلا المال، ومن الطبيعي أن يحمل هذا الهجاء إسقاطًا ضمنيًا يتمثل في أنه عبر عما يؤلمه قبل أن يعبر عما يؤلم سلمًا الخاسر؛ وكأنه لم يجد شيئًا أوجع على سلم من الهجاء بهذه الشاكلة. فمروان يقيس على نفسه ويتمثل ما يوجعها أولا قبل أن يتجه بالهجاء إلى سلم الخاسر؛ ولو كان سلم على شاكلة مروان لكان هذا اللون من الهجاء أوقع أثرًا وأشد إيلامًا من غيره. فهو هجاءٌ يخلو من الفحش والسباب ويتميز بالنظافة والطرافة في آن ويعبر عن التطور الذي أصاب هذا الغرض بفعل الرقي الحضاري في العصر العباسي؛ فلم يعد هذا اللون القائم على التباري في الفحش وذكر العيوب الجسمية والخلقية مناسبًا لهذا العصر الذي أصبح فيه الهجاء ناضجا يعتمد على اختراع ألوان جديدة ومعان مبتكرة من الهجاء، بالإضافة إلى الاعتماد على الوخز والتعريض والحيل الساخرة التي تبدد ثقل الهجاء الموروث وبداوته عوضًا عن الذكر والتصريح.

وعلى كل يكشف هذا اللون المبتكر من الهجاء القناع عن مروان وعن حقيقة شخصيته إذا كان هذا القناع ما زال موجودًا!!. وعلى ذلك نستطيع القول عن شخصية

(١) المصدر السابق: ص٧١، ٧٢.

مروان: إنها شخصية مفتونة بالمال ولديها القدرة على تقمص الأدوار التي تروي عن طريقها شهوتها العارمة نحو المال، وهذه الشخصية ماثلة في كل أغراضه الشعرية؛ فهي تواجهك في المديح والرثاء والفخر والهجاء...وغيرها من أغراضه الشعرية، وهي الأساس الثابت الذي يميز كل أشعاره؛ هذه الأشعار التي تمتد لتتصل بهذه الرغبة عنده. فشخصية مروان تساوي المال لا أكثر ولا أقل؛ وعاطفته هي المال كذلك لا أكثر ولا أقل، إذ إنه قلما تظهر هذه العاطفة بمنأى عن شهوة المال الصارخة عنده؛ وإن ظهرت فبمقدار ما يوصله إلى المال أيضا.

وعلى هذا يعد البحث عن الصدق والكذب أو الحب والنفاق عملا مستهلكًا لا قيمة له مع واحد بشاكلة مروان؛ وذلك لأن هذا البحث سيجعل صاحبه يقدم أحكامًا ونتائج بعيدة عن سمائه وحقيقته؛ فحقيقته الثابتة والمستقرة هي شهوة وهي العاطفة التي تحقق هذه الشهوة وهي في الأخير الأغراض الشعرية التي تتلون بالعاطفة لترضي هذه الشهوة.

تلك هي شخصية مروان التي يتراءى للدارس أنها أقرب إلى حقيقته، والتي يمكن أن تستخرج من عاطفته وشعره؛ وذاك هي العلاقة التي تقوم على التكامل والتلاقي بين مروان الشخصية والعاطفة والشعر؛ فالعلاقة بلغة أصحاب "العلوم الطبيعية" طردية /متنامية وقوية بين هذه الأضلاع الثلاثة؛ فلا يكاد يذكر جانب إلا ويستدعي الأمر ذكر الجانبين الآخرين وهو ما يشير بوضوح إلى الترابط الوثيق بين هذه الأضلاع مجتمعة، تلك الأضلاع التي تقوم العلاقة بينها على تلاقي الأدوار التي لولاها ما تمكن الدارس أن يصل إلى نتيجة ذات قيمة عن حقيقة الشخصية المروانية.

* * *

(٩)

## الخاتمـــة

لا أقول هذا نهج جديد من البحث – كما قال العقاد عندما تصدى لاستخراج شخصية ابن الرومي من شعره – ولكنني أقول: هذا نهج مركب ومتداخل من الدرس، لأن محاولة استخراج الشخصية من مجمل الشعر تعد أمرًا معقدًا وصعبًا بكل المقاييس؛ وذلك لأنها تحتاج إلى مزيد من الصبر والأناة من جانب، ولأنها تلزم الدارس ضرورة الرجوع إلى كل شاردة وواردة عن الشاعر وشعره والقضايا المرتبطة بهما وهو الأهم هذا من الجانب الثاني.

ولو كانت هذه المحاولة لاستخراج الشخصية وصورتها منصرفة إلى غرض بعينه لما وُجِدَ هذا التعقيد من الأساس؛ لأن محاولة استخراج الشخصية من كامل النتاج الشعري تستدعي ضرورة البحث وإبداء الرأي في كل القضايا العالقة وشبه العالقة المرتبطة بشخصية الشاعر وشعره، وهو ما يعدُّ بحقٍّ عملاً مرهقًا ومعقدًا، ولأنه لا يخلو من المخاطر والتبعات فبعض الآراء يترتب على بعض. وعلى هذا فأسهل على الدارس وأيسر أن يستخرج رأيًا ما أو يكوّنَ رأيًا واحدًا في قضية بعينها من أن يكوّنَ مجموعة من الآراء في مجموعة من القضايا عند شاعر واحد في وقت واحد أيضا؛ لأن هذا الإقدام سيلزمه ضرورة تحقيق التوازن والانسجام في كل الآراء التي يصدرها؛ بحيث يؤدي بعضها إلى بعض من جانب ويتكامل بعضها مع بعض من الجانب الثاني. هذه هي طبيعة الدرس الأدبي المنهجي أو هذه هي الإشكالية الحقيقية عندما يخوض الدارس في غمار الشخصية ويحاول استكشافها؛ أو بالأحرى عندما يحاول رسم صورة محددة ومنهجية لها.

ومع أنني لا أسعى في هذه الخاتمة كذلك إلى تقديم نتائج تقليدية؛ خاصة وأن أهم نتيجة تنطوي عليها هذه الدراسة قد أصبحت محسومة وواضحة، وأعني بها واقع شخصية مروان وصورته التي يمكن أن تستخرج من العلاقة بين العاطفة والشعر، إلا إنني لا يمكن أن أتجاوز بعض النتائج المبتكرة التي تستحق الإفراد والتي تمخضت عنها هذه الدارسة.

وأول هذه النتائج المبتكرة الجديدة التي تراءت لي تكمن في تداخل عاطفة مروان

بن أبي حفصة وتمازجها مع المال بحيث أصبحت العاطفة و المال روحًا واحدة، فلا نكاد نعرف أيهما المحرك للآخر، فهل المال هو المحرك للعاطفة؟ أم أن العاطفة هي المحركة والدافعة إلى المال؟؟. ولقد كانت الشخصية المروانية مزيجًا مختلطًا ومتدخلا من العاطفة وحب المال على حد سواء، وبالأحرى كانت الشخصية المروانية رصدًا دقيقًا لشهوة حبِّ المال التي فرضت نفسها على مروان ونتاجه الشعري جميعًا، على ذلك نخلص إلى أن العاطفة هي المال والمال هو العاطفة عنده ، ولقد تماهت شخصيته في المال وتماهى المال في شخصيته ولقد كان المال روحه التي لا تفارقه؛ فالمال زاده والمال غذاؤه والمال هواؤه الذي يتنفسه وباختصار المال هو فطرته التي جبل عليها ومن الطبيعي في هذه الحال أن يمثل كل شيء بالنسبة له؛ فهو يعيش من أجل المال وقد أراد إن استطاع / أن يعيش المال من أجله.

ومهما يكن فإن من أراد فهم حقيقة الشخصية المروانية فلا بدله من أن يضع في الحسبان هذه العلاقة المتداخلة بين الشخصية من جانب / والعاطفة والمال من الجانب الثاني؛ ذاك التداخل الذي جاء النتاج الشعري لكي يشهد عليه. وكيف لا يشهد هذا النتاج على هذه التوأمية التي تشكل الأساس الأول في فهم مروان؛ الذي يخفق قلبه ويرجف للمال وإن كان لا يخفق ولا يرجف لشيء آخر غير المال. ويعلل هذا الخفقان القوي والارتجاف الظاهر السبب والدافع في انقياده وصدوره في شعره لما يمليه عليه المال. ولا يخفى في هذا السياق أن الشعر صدى للعاطفة ومن المفترض أن تكون الشخصية صدى من العاطفة والشعر جميعًا؛ ولقد خالفت الأشياء طبائعها وحقائقها وانقلبت رأسًا على عقب عند مروان بحيث شكلت شهوة حب المال وجمعه/ الشخصية والشعر والسلوك جميعا، ولا أغالي عندما أقول: إن شهوة المال هي مروان كسلوك وشعر وفعل ورد فعل...بل هي مروان في كل صغيرة وكبيرة.

أما النتيجة الثانية التي أرى إثباتها فتتمثل في أن الظروف المحيطة بمروان قد عمقت في نفسه هذا الشعور من الولع والارتباط بالمال، وهي نتيجة تفرضها المنهجية العلمية؛ لاسيما وأن مروان قد عاش في مرحلة التحول والانتقال من الأموية إلى العباسية، ولا يخفى أن هذه التقلبات والتغيرات السريعة والمتلاحقة قد عملت آثارها في نفسه، وهو من عاين فتك العباسيين بكل ما هو أموي؛ وعاصر هذه الفترة التي ارتفع فيها أقوام

وانخفض فيها آخرون؛ فلقد أصاب التحول كل شيء من حوله؛ ولا يخفى أن هذا كله قد عمق في نفسه الشعور بالخوف وعدم الأمان، وهذا الطريق دفعه إلى الإكثار من المال وحبه، فالمال في نظره هو عدة المرء في هذه التحولات وقد يدفع عنه ما قد يصيبه من أذى في أي وقت من الأوقات، وهو سفينته التي تقوده إلى شاطئ النجاة. وهكذا كانت هذه الظروف التي لازمت فترة التحول من الأموية إلى العباسة بمثابة الوقود الذي دفع مروان دفعًا إلى التعلق بالمال؛ وكانت هذه الفترة هي الوقود الذي زاد الاشتعال في عاطفته تجاه المال؛ بل قوى في نفسه الشعور بالمال بحيث غدت شخصيته بمثابة الوجه الآخر للمال؛ فشخصية مروان هي المال والمال هو الشخصية بكل أبعادها ودوافعها ونوازعها.

وأما النتيجة الثالثة التي تفرض نفسها في هذا السياق فتتمثل في أن مروان لم يحلق في دوائر مغلقة ضيقة من الموروث الشعري التقليدي كما ذهب إلى هذا أكثرية دارسيه ولكنه خاض ضروبًا متعددة متنوعة من التجديد في شعره؛ ويكفي أن كل دارسيه بالإجماع يتفقون على تجديده في المديح السياسي للعباسيين وانتصاره لحقهم في الخلافة من جانب وقدرته على التصدي لحجج العلويين و نجاحه في قلب الموازين لتصبح في صالح العباسيين بعد أن استمرت ردحًا في جانب العلويين من الجانب الآخر. ويكفي كذلك أن سبقه وريادته لشعراء عصره في هذا الاتجاه الذي لا يساويه فيه شاعر آخر وقلما نعثر له فيه على ندٍّ أو نظير حقيقي؛ وفوق هذا فلقد قلده الشعراء وساروا في طريقه الذي عبده لهم.

ولقد كان لمروان ضروب متنوعة من التجديد غير هذا اللون الذائع والمشهور من تجديده في المديح السياسي، ومن ضروب التجديد التي طرقها أيضا أسبقيته في التعبير عن شعر الحرب الذي اشتهر وذاع في القرن الثالث والرابع؛ ذاك الجانب التجديدي الذي لم يجد من يحفل به أو يعره الاهتمام عنده مع أن أشعاره في هذا الباب تمثل الإرهاصات الأولى التي عمقت ومهدت لهذا الفن بعد ذلك، والسبب في ذلك يكمن بدون شك في هيمنة الأحكام التقليدية على مروان وشعره.

ومن ضروب التجديد التي عالجها وسبق إليها تجديده في موضوع القصيدة الهجائية وابتكاره لطرائق مستحدثة من هذا الفن؛ خاصة بعده عن السباب والفحش في الهجاء

والتزامه بألوان راقية من الهجاء، وبالإضافة إلى هذا نرصد في شعره ضربًا من الشعر الساخر الذي يتناول العيوب الجسمية ويصورها تصويرًا ساخرًا، ولقد سبق مروان بهذا الصنيع ابن الرومي رائد هذا الاتجاه في الشعر العربي، فكيف نقيّم قوله؟:

لَقَدْ كَانَتْ مَجَالِسُنَا فِسَاحًا فَضَيَّقَهَا بِلِحْيَتِهِ رَبَاحُ
مُبَعْثَرَةُ الأَسَافِلِ والأَعَالِي لَهَا فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ جَنَاحُ[1]

ومع أن بعض جوانب التجديد التي طرقها مروان لم تأخذ شكل الظاهرة في شعره إلا أنها تحمل قيمة مهمة تتمثل في سبقه إلى ضروب التجديد التي تطورت واستقرت فيما بعد وهو ما يبين أن مروان لم يكن أمويًا تقليديًا في شعره بقدر ما كان الرجل مهتما بالتجديد وألوانه المختلفة مما تفرضه الحياة الحضارية العباسية الجديدة وعلى ذلك فإذا كان مروان تقليديًا في طرائق حياته المختلفة فإنه لم يكن كذلك في فنه الشعري على الإطلاق، لأن الرجل سبق عصره وتفوق على نظرائه في كثير من الضروب التي سلكها، وعلى هذا لا يصح بأي حال من الأحوال أن نطالب مروان بأن يقدم الظاهرة الشعرية المتكاملة في شعره حتى نشهد له بفضله وسبقه ويكفي أنه قدم الإرهاصات، وكان له فضل السبق.

ولا يخفى أن الموضوعات الشعرية المستحدثة تبدأ بسيطة عفوية وتأتي على استحياء أول أمرها ثم سرعان ما تلبث أن تتطور وتتعمق بعد فترة من الزمن لتشكل ظاهرة تامة في حدودها وأركانها، ومن هنا يكفي مروان أنه طرق هذه الموضوعات ونبه إليها بما ينبئ عن ملكة خاصة قادرة على استشراف المستقبل، ويمكن لنا أن نتساءل: كم من موضوع مستحدث بدأ بأبيات قليلة ثم تتطور ونضج بعد ذلك؟؟ ويكفي أن نشير إلى هذا اللون من الهجاء الذي بدأ سهلا بسيطا عند مروان وغيره ثم وصل إلى قمة تعقيده عند ابن الرومي والمتنبي وغيرهما، ويكفي أن نشير كذلك إلى شعر الحرب، ويمكن أن نشير في الأخير إلى الموضوعات الفكاهية التي بدأت بالمقطوعات الشعرية التي لا تتجاوز بضعة أبيات ثم تحولت إلى قصائد طويلة "كديك دعبل" و"حمار طياب" و"بغلة أبي دلامة" و"طيلسان ابن حرب" و"شاة سعيد"، فكلها بدأت بسيطة ثم راقت

---

(١)ابن قتيبة: "الشعر والشعراء"، تحقيق د.مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية: بيروت، ط٣، ٢٠٠٣م، ٤/ ٥٦.

للشعراء فنظموا على نهجها القصائد الطويلة؟.

ويبقى القول: إن هذه الدراسة عمل أدبي يجري عليها ما يجري على الأعمال الأدبية، ولهذا لا يمكن لها أن تقدم الكلمة الأخيرة أو النهائية عن شخصية مروان بن أبي حفصة، كما أنه يجري عليها ما يجري على أعمال البشر من النقصان فالكمال الخالص لله رب العالمين، ومع ذلك فلقد تمخضت عن العديد من النتائج التي أحسبها جديدة في بابها فيما يتعلق بشخصية مروان ويكفي أنها آراءٌ جديدةٌ لم تطرح من قبل ولم تتطرق إليها الأقلام، ويمكن القول: إنها قدمت مروان جديداً وقدمت صورة جديدة غير معهودة عن الرجل، ويكفي في الأخير أن هذه الدراسة قد سبحت في مياه جديدة غير راكدة أو فاسدة، وقد اختارت أن تصارع الأمواج العاتية //بما يتطلب الجرأة في إبداء الرأي والقدرة على المناقشة والحرية في الاتفاق أو الاختلاف // بدلا من أن تعتمد على السهولة وترضى بالقشور التي تفرض على صاحبها التكرار والنمطية والإعادة بالإضافة إلى أنها تحبسه على الثابت المتوارث أو التقليدي المعهود. هذه هي الدراسة بين يدي القارئ؛ أتمنى من الله أن تضيف الجديد المفيد إلى هذا الموضوع؛ جعلها الله خالصة لوجهه الكريم فهو العالم سبحانه أني قد بذلت فيها من المعاناة والجهد الكثير، أحمده سبحانه على توفيقه وأشكره على تسديده.

* * *

## قائمة المصادر والمراجع:

أولا المصادر القديمة(*):


- أبو الفرج الأصفهاني: "**الأغاني**"؛ دار الكتب المصرية: القاهرة، د.ت.
- البيهقي: "**المحاسن والمساوئ**"؛ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. مطبعة نهضة مصر: القاهرة، ١٩٦١م.
- الجاحظ: "**البخلاء**"؛ تحقيق د. طه الحاجري، دار المعارف: القاهرة، ١٩٦٣م.
- ابن خلكان: "**وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**"؛ تحقيق د.إحسان عباس، دار صادر: بيروت، ١٩٧٧م.
- الدارمي: "**سنن الدارمي**"، تحقيق فواز أحمد زمرلي وخالد السبع العلمي، دار الريان للتراث: القاهرة، ١٩٨٧م.
- الطبراني: "**المعجم الكبير**"؛ تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، مطبعة الزهراء: الموصل، ط٢، ١٩٨٤م.
- ابن عبد البر: "**جامع بيان العلم وفضله**"؛ تحقيق أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي: المملكة العربية السعودية، ط٤، ١٤١٩هـ.
- ابن عبد ربه: "**العقد الفريد**"؛ تحقيق أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الأبياري، ط مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر: القاهرة، ط٣، ١٩٦٥م.
- ابن قتيبة: "**الشعر والشعراء**"؛ تحقيق د.مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية: بيروت، ط٣، ٢٠٠٣م.
- ـ: "**عيون الأخبار**"؛ تحقيق د.مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية: بيروت، ط٣، ٢٠٠٣م.
- المرزباني: "**الموشح، مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر**"؛ تحقيق على محمد البجاوي، دار الفكر العربي: القاهرة، د.ت.
- **مروان بن أبي حفصة**: "شعره"؛ تحقيق د. حسين عطوان، دار المعارف: القاهرة، ط٣، ١٩٨٢م.
- ابن المعتز: "**طبقات الشعراء**"؛ تحقيق عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف: القاهرة، ١٩٥٦م.
- اليافعي: "**مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان**"؛ تحقيق عبد الله الجبوري، مؤسسة الرسالة: بيروت، ١٩٨٤م.


---

(*) لم أضع في الحسبان عند الترتيب "ابن" و"ال".

**ثانيًا المراجع الحديثة([*]):**

- إبراهيم عبد القادر المازني: "**الشعر غاياته ووسائطه**"، جمع وتصحيح د. مدحت الجيار، دار الصحوة: القاهرة، ط٢، ١٩٨٦م.
- د. أحمد أحمد بدوي: "**أسس النقد الأدبي عند العرب**"، دار نهضة مصر: القاهرة، ١٩٧٩م.
- د. أحمد كمال زكي: "**النقد الأدبي الحديث**، أصوله واتجاهاته"، دار النهضة العربية: القاهرة، ط٢، ١٩٨١م.
- إسماعيل بن حمد السماعيل: "**شاعر اليمامة مروان بن أبي حفصة**"، مكتبة الملك فهد الوطنية: الرياض، ١٤١٤هـ.
- د. حمد بن ناصر الدخيل: "**دراسات ومقالات في الأدب العربي**"، ط النادي الأدبي بالمنطقة الشرقية: الدمام، ١٤٢٠هـ.
- د. شوقي ضيف: "**العصر العباسي الأول**"، دار المعارف: القاهرة، ط٥، ١٩٧٥م.
- د. طه حسين: "**حديث الأربعاء**"، دار المعارف: القاهرة، ط١٠، د.ت.
- د. عبد الحميد حسين: "**الأصول الفنية للأدب**"، مكتبة الأنجلو المصرية: القاهرة، ط٢، ١٩٦٤م.
- د. عبد الله أحمد باقازي: "**الشعر والموقف الانفعالي**"، دار الفيصل الثقافية: الرياض، ١٩٩١م.
- د. محمد زكي العشماوي: "**قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث**"، دار النهضة العربية: بيروت، ١٩٧٩م.
- د. محمد عارف حسين: "**مروان بن أبي حفصة شاعريته وشعره**"، مطبعة الأمانة: القاهرة، ١٩٨٣م.
- د. مصطفى الشكعة: "**الشعر والشعراء في العصر العباسي**"، دار العلم للملايين: بيروت، ط٩، ١٩٩٧م.
- د. نجيب محمد البهبيتي: "**تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري**"، مطبعة الخانجي: القاهرة، ط٣، ١٩٦٧م.
- د. يوسف حسين بكار: "**بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث**"، دار الأندلس: بيروت، ط٢، ١٩٨٢م.

---

([*]) لقد قمت بترتيب الأسماء كما هي على طبيعتها، ولم ألتزم باسم الشهرة أو العائلة كما هو الحال مع المصادر القديمة.